محاورة ديكارت

البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى

ترجمة وتقديم : **مجدى عبد الحافظ**



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محاورة ديكارت / ترجمة وتقديم : مجدى عبد الحافظ -
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
١٣٦ ص ؛ ٢٠ سم - (المشروع القومى للترجمة)
١ - الديكارتية (فلسفة)
٢ - الفلسفة الحديثة
(أ) عبد الحافظ ، مجدى (مترجم ومقدم)   ١٩٤

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٨٥٤
الترقيم الدولى (X - 276 - 437 - 977)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

محاورة ديكارت

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٠٦
- محاورة ديكارت : البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى
- ديكارت
- مجدى عبد الحافظ
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Recherche de La Vérité par
la Lumière Naturelle
Par Descartes

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

إهداء المترجم

إلى جماعة الرواد ومقررها أ. د. على على المرسى فى عيدها الماسى ، وكذا إلى أعضائها منذ تأسيسها فى ١٩٢٩، وإلى أرواح من رحلوا منهم، إلى القيم النبيلة التى أرستها هذه الجماعة فى التمسك بقيم المواطنة واحترام الآخر والمخالف فى الرأى وتنمية البحث العلمى الملتزم بقضايا الوطن وبإبداع الجديد والطليعى دائمًا، وإنكار الذات، والتفانى فى خدمة المجتمع، والاهتمام بلبنة هذا الوطن (الفرد). وعلى الرغم من أن الجماعة نشطت وما زالت تنشط فى العمل الاجتماعى والبحثى، فإننا ننسى دائمًا أن الرواد هم الذين دعوا لإنشاء أول وزارة للشئون الاجتماعية قبل أن تستجيب الحكومة فى عام ١٩٣٧ وتضع على رأسها أحد الرواد، وهم الذين دعوا بل وأسسوا معاهد الخدمة الاجتماعية وكلياتها، كما أنهم أصحاب فكرة الوحدات المجمعة الريفية، التى تبنتها الدولة فيما بعد ... إلخ، وهذا بعض من غيث؛ إذ كانت لهم أيادٍ بيضاء على كل مجالات الحياة فى مصر التى عشقوا ترابها وناسها حتى الرمق الأخير.

إليهم جميعًا أهدى هذا العمل، وليس غريبًا أن يكون العمل المُهدى إليهم عملاً فلسفيًا، وهم الذين اهتموا بالتأصيل النظرى لحركتهم الاجتماعية منذ البداية، عندما استندوا إلى الأفكار الفابية التى اطلعوا عليها فى مظانها الأصلية لتكون مرشدًا لهم فى حركتهم الاجتماعية على الأرض بعد أن مَصَّروها ، وجعلوها فى خدمة أمانيهم وطموحاتهم الوطنية الشريفة.

وكل عيد وهم وأهلنا فى مصر بخير

مجدى عبد الحافظ

تصـــدير

يسعدنى أن أقدم إلى قراء الضاد نصًا لديكارت غير معروف بالعربية، وهو نص صغير غير مكتمل، لم ينشره ديكارت فى حياته، إلا أنه تم نشره سنة ١٧٠١م ؛ أى بعد وفاة صاحبه بحوالى خمسين عامًا . والنص – وهو عبارة عن محاورة تدور بين ثلاثة أشخاص يمثلون مواقف مختلفة تجاه الثقافة – لا يُعرف على وجه الدقة التاريخ الذى كُتب فيه، وعلى الرغم من أن النص معروف يقينًا انتسابه لديكارت حيث نُشِر ضمن الأعمال الكاملة بالجزء الثانى[١]، وفى الأعمال المختارة[٢]، ووجد بالفعل ضمن أوراق ديكارت ومخطوطاته التى وجدت بحوزته عند وفاته[٣] – فإنه لم يحظَ بعد بدراسات معمقة على غرار النصوص الأخرى المعروفة لديكارت. من هنا جاء اختيارنا لهذا النص عسى أن نلقى به الضوء على بعض الجوانب التى ظلت غامضة فى الدراسات الديكارتية العربية.

إن بناء المعرفة على الذات الإنسانية هو الإنجاز الأكبر لفلسفة ديكارت على وجه الخصوص، وللفلسفة الحديثة بوجه عام، وذلك نفسه هو أهم ما يميز هذه المحاورة الوحيدة التى كتبها فيلسوفنا؛ فقد كان يحاول إثبات أن الإنسان (أى إنسان) قادر بفطرته المتمثلة فى نور العقل

وبصيرة الذهن وحدهما على الوصول إلى الحقيقة، والإنسان الذى يقصده هو الإنسان الخارج عن سيطرة الكنيسة، هو الإنسان الذى يجعل من ضميره الذاتى بوصلة لسلوكه، ومن ثم لن يكون فى حاجة إلى نجدة من الدين أو الفلسفة؛ فنور عقله الطبيعى كفيل وحده ليس لبلوغ الحقيقة فحسب، ولكن أيضًا ليحدث اختراقًا لأصعب العلوم وأعقدها، ولعل تكملة عنوان المحاورة يضعنا فى قلب هذا الفهم : "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى الذى به وحده - ومن دون نجدة الدين أو الفلسفة - تُحدد الآراء التى يجب أن تجعل الإنسان المستقيم (المثقف) يمتلك كل الأشياء التى يُمكنها أن تُشكل موضوع أفكاره وتخترق أسرار العلوم الأشد عجبًا"(٤).

كان يحاول ديكارت - من خلال حواره هذا - بسط كل فلسفته على محك الاختبار الفعلى من خلال خطة عريضة مليئة بالطموح، إلا أنها لم تكتمل، ووصلت إلينا فى شكلها الحالى غير التام شاهدة على أحد مشروعات ديكارت التى اختطها ولم يستكملها كما أراد، ويكفى مطالعة بدايات هذه المحاورة الفريدة(٥)، للتعرف على ما كان قد انتواه حينما همَّ بكتابتها؛ إذ كان يود البدء بأهم ما يمثل أساس المعارف الإنسانية - كما يرى - أى بالنفس العاقلة وكل ما يتصل بها طبيعة وأفعالاً، ومن ثم الوصول إلى الله خالق هذه النفس وأشياء العالم، والكيفية التى تدرك بها الحواس موضوعات العالم لنحكم عليها، إضافة إلى أعمال الإنسان المادية (الآلات والفن وخداعه ... إلخ) وأعمال

الطبيعة لمقارنة نفوس كائناتها بالنفس الإنسانية، كما كان يود اختبار ما يعتبره الإنسان بديهيًا، إضافة إلى الحدس والعلاقة بين أشيائه والأشياء الذهنية وعلاقاتهما بالخالق، لينتقل بعدها إلى العلوم ليطرح منهجه، آملاً من هذا كله إعداد ذكاء محاوره فى خطين: الأول معرفى عندما سيميز الحقيقة تمامًا، والثانى أخلاقى عندما يحسن إدارة إرادته، فيستطيع التمييز بين الفضائل والرذائل.

وخلاصة طموح ديكارت بأحرف كلماته: "إن رجلاً ما ذا عقل سليم، تربى فى صحراء ما، ولم يتم تنويره أبدًا إلا بالنور الطبيعى، ألن يستطيع، إذا ما اختبر بعناية الأسباب نفسها، أن يصل إلى رأى آخر مثل رأينا"(٦)؟ ألا يذكرنا طموح ديكارت هذا بما أراده ابن طفيل منذ قرون عديدة قبل ديكارت بعمل أدبى آخر هو " حى بن يقظان "؟! تلك كانت قريحة الإنسان عبر عصور تفكيره المختلفة : المراوحة بين العقل والنقل، أيًا كان هذا النقل كتابًا مقدسًا أو علومًا موروثة تم تعلمها فى المدارس.

هذا وسنحاول فى مقدمتنا مقاربة هذا النص، لكن قبل هذا لابد من كلمة حول الترجمة؛ فالنص ينتمى إلى القرن السابع عشر، مما يعنى اختلافًا فى كتابة بعض الكلمات والحروف، إضافة إلى اختلاف معانى بعض المصطلحات المستخدمة فى هذا العصر، وهو ما سنشير إليه كما اتسم النص بالعبارات الطويلة جدًا التى لزم معها تتبع المعنى حتى نهايته، ولم نشأ أن نقطع العبارات حتى نساير الأصل، إلا أننا لجأنا فى بعض الأوقات إلى إضافة بعض الكلمات بين قوسين حتى يُفهم المعنى باللغة العربية، كما حاولنا الإحالة - كلما كان هذا ممكنًا - إلى أعمال

ديكارت الأخرى لمساعدة القارئ في دراسة ما جاء بالمحاورة ومقارنته قياسًا على مؤلفاته الأخرى، وهو ما أوردناه في الهوامش، هذا وسوف نقدم هذه الترجمة بدراسة سنحاول فيها تتبع موقع الدين في فلسفة ديكارت، ورصد أهمية نص هذه المحاورة، وذلك قبل إلقاء نظرة على المحاورة نفسها، لنقوم بعدها بإعادة النظر في مرتبة الشك لدى ديكارت، دون أن ننسى تقديم لمحة عن الشك الديكارتي في الدراسات العربية لنقدم في الختام الخلاصة التي خرجنا بها من دراستنا، هذا وقد قمنا بعد ترجمة المحاورة برصد يوميات تاريخية في حياة ديكارت.

ولا يسعني في هذا التصدير إلا توجيه الشكر إلى كل من : د. على كورخان على الوقت الذي أمضاه معي في مراجعة بعض الصفحات، و د. هدى كشرود التي أبدت بعض الملاحظات النافعة على الترجمة، وكذا أ. أسامة عرابي على مراجعته النص المترجم، كما لا أنسى أن أوجه جزيل شكري إلى أ. وجدي خيري على العناية التي جمع بها النص، وأتمنى أن أكون – بترجمة هذا النص – قد أفدت المكتبة العربية عمومًا، والدراسات الديكارتية في العالم العربي على وجه الخصوص.

مجدى عبد الحافظ

صيف ٢٠٠٦ (الجزائر)

هوامش التصدير

(١) La Recherche de la vérité par la Lumière Naturelle, In Oeuvres Philosophiques, T. 2, Coll. " Classiques Garnier ", Paris, 1987.

(٢) Recherche de la vérité , In Oeuvres choisies, Garnier Frères, Sans date.

(٣) يحمل النص البند (ATX, II) من جرد المخطوطات التى وجدت فى حقائب ديكارت باستكهولم، انظر : Genviève Rodis - Louis, le développement de la pensée de Descartes, Ed. J. Vrin, Paris, 1997, p. 209.

ويقع النص فى الصفحات من ٦٧ – ٩٠ فى نسخة Descartes, Opuscula Posthuma (Blaeu) وذلك بعد كتاب القواعد les Regulae ، وفى طبعة Alquié من صفحة ١١٢٢ – ١١٤١، وجاء فى طبعة Sameul S. De Sacy فى الجزء الثانى من صفحة ٦٨٤ – ٧٧١ مع مقابلته بالنص اللاتينى.

(٤) Descartes, Recherche de la vérité, In Ouvres choisies .., op.cit., p.384.

(٥) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p.p 391 - 392.

(٦) ibid., p. 392.



دراسة حول النص

توطئة :

عاشت الفلسفة خلال القرون الوسطى فى معية الدين، فكانت خادمة له، ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد أن قرر الفكر الفلسفى أن يسترد ثقته بنفسه، ويتحرر من التبعية والاعتماد، سواء على التقليد المسيحى أو التقليد الأرسطى؛ بمعنى أن يعتمد الفكر أخيرًا على قواه الخاصة من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولم تكن هذه الخطوة لتتحقق لولا الجهود التى بذلها مؤسس العقلانية ومؤسس الحداثة الفلسفية ديكارت، الذى حرر العقل، ومن ثم التفكير الفلسفى، من كل سلطة خارجة عنه، سواء سلطة الكنيسة الدينية أو سلطة التقليد المدرسى الذى تبنته الكنيسة فى صورته الأرسطية.

مع ديكارت إذن أصبح العقل ولأول مرة قادرًا على الاعتماد على نفسه للبحث عن الحقيقة انطلاقًا من فكره، أى من تأمله الشخصى (التأملات الميتافيزيقية). ونال ديكارت بجدارة لقب مؤسس العقلانية؛ وذلك لأنه أخذ المبادرة – وللمرة الأولى فى تاريخ الفلسفة – عندما جعل العقل قادرًا على استنباط جميع الحقائق، إذا عرف اتباع قواعد المنهج (مقال المنهج).

حرر ديكارت إذن فلسفة القرون الوسطى خادمة الدين من هذا الرق، واستقل بها عن الدين؛ وذلك بفضل العقل الإنسانى الذى أصبح لديه أعدل الأشياء قسمة بين الناس.

موقع الدين فى فلسفة ديكارت:

مثَّل هذا الموضوع مركز اهتمامات كثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الديكارتية الذين انقسموا فيما بينهم حول تأويل ما أنجزه ديكارت من أعمال، وبالفعل لم يكن هذا الاهتمام حديثًا؛ فما تركه لنا ديكارت من نصوص – مثلها مثل النصوص العظيمة دائمًا – تظل مفتوحة وقابلة للقراءات المتنوعة التى تختلف باختلاف المواقع الأيديولوجية للقارئين من جهة، والعصر الذى تمت فيه القراءة من جهة أخرى. ولنا فى قراءات معاصرة اليوم ما يضفى أهمية بالغة على بعض هذه القراءات التى يمكن أن نطلق عليها "قراءات منتجة"، بل استطاعت التعامل بالتناص مع النصوص الأصلية بفاعلية جعلتها قراءات مبدعة، وهو حال قراءة ميشيل فوكو لنيتشه، وقراءة جاك لاكان لفرويد، وكذلك قراءة لويس ألتوسير لماركس. ولعل القراءات المختلفة لديكارت بدأت مبكرًا جدًا، ولنا فى قراءة كل من مالبرانش (١٦٣٨ – ١٧١٥)، وإسبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧) نموذجان للقراءة التى تحاول أن تؤمم المادة المقروءة لحساب توجهات أصحابها، وعلى حساب التوجهات المخالفة. لكن السؤال الذى يفرض نفسه : ألا يمكننا أن نقرأ أعمال ديكارت بعيدًا عن هذه القراءات المصبوغة بآراء أصحابها ؟ لعل الإجابة

ستكون بالغة الصعوبة؛ فلا أحد يستطيع الخروج من أسر أفكاره السابقة، ولا من سياق العصر الذى يعيشه، وبالتالى يقع دائمًا - سواء أكان واعيًا أم لم يَعِ - ضحية هذه الأفكار والتوجهات التى تسبقه إلى الفهم فتؤول له ما يقرأ عندما يراه ملونًا بنظارته هذه، وكأنه يبحث فى النص عما وضعه فيه من قبل !! وعلى الرغم من صعوبة المحاولة، فإننا سنجازف بمحاولة فهم - وهى تأويلية أيضًا لا ننكر هذا - لموقع الدين فى فلسفة ديكارت، خاصة أن النص (المحاورة) الذى نحن بصدده، يمكن أن يدعم وجهة النظر التى سنحاول أن نبسطها فى هذه المقدمة.

يعتمد أنصار من يقرون بأن ديكارت يمثل الإيمان المسيحى الكاثوليكى فى أدق صوره على ما جاء فى أعمال ديكارت نفسه وسلوكه من الانغماس فى حياة روحية كنسية انعكست على كتاباته وتصرفاته، أليس هو الذى رأى أحلامًا ثلاثة اكتشف فيها "مبادئ علم عجيب"[١]؟ أليس هو من اعتبر ذلك " رسالة من روح الحقيقة التى وعدته بأن تفتح له خزائن العلوم جميعًا ؟"[٢]، أليس هو أيضًا فى الأيام التالية الذى "صلى صلاة لله وأخرى للعذراء، ونذر نذرًا أن يحج إلى نوتردام دولوريت ؟"[٣]. وأكثر من ذلك، أليس هو القائل : " إن ما أنزله الله هو اليقين الذى لا يعدله يقين أى شىء آخر ؟ "[٤]. وكما نرى فهى أقوال لا يمكن أن تصدر إلا عن مؤمن عريق فى إيمانه، كما يسوق أيضًا أنصار إيمان ديكارت نصين ليؤكدوا بهما ما سبق؛ حيث يقول ديكارت فى النص الأول : "يكفينا نحن معشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الإيمان بأن هنالك إلهًا،

وبأن النفس الإنسانية لا تفنى بفناء الجسد، فيقيني أنه لا يبدو في الإمكان أن نقدر على إقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان، بل ربما بفضيلة من الفضائل الأخلاقية، إن لم نثبت لهم أولاً هذين الأمرين بالعقل الطبيعي"[٥]. ويقول في نصه الثاني : " ... غير أن مجمع لتران المنعقد برياسة البابا ليون العاشر وما قرره من إدانة هؤلاء (الكافرين) ودعوته الفلاسفة المسيحيين دعوة صريحة إلى الرد على أقوالهم، واستعمال أقصى ما تملك عقولهم من قوة لإظهار الحق، كل هذا قد جرأني على محاولة ذلك في هذا الكتاب"[٦]. وسنؤجل هنا تعليقنا على هذين النصين الأخيرين، لكي نتساءل حول جدية ذلك التوجه الديني المزعوم الذي نسبه البعض لديكارت.

وفي تصوري أنها محاولة من ديكارت لإخفاء وجه آخر أكثر انفتاحاً وبُعداً عما أعلنه في نصوصه السابقة؛ حتى يتفادى ما يمكن أن يحمله إليه هذا العصر المضطرب، خاصة في ظل محاكم التفتيش التي ما زالت تمارس مهامها بالقسوة التي عُرفت عنها، ومأساة جاليليو ما زالت ماثلة أمامه كشبح هائل يستعد لتهديده في كل لحظة، ونحن نعلم أن ديكارت عندما علم بمحاكمة جاليليو ، وكان قد انتهى من كتابه " العالم "، ووصل فيما وصل إليه بنتيجة مطابقة لما توصل إليه جاليليو بدوران الأرض – أرجأ نشر كتابه خوفاً من أن يتعرض للمصير نفسه، ومن هنا يمكننا التعليق على النصين اللذين أرجأنا التعليق عليهما، لنجد في الأول أن ديكارت يحاول أن يحشر نفسه ضمن المؤمنين، مُذكِّراً بالأمور المعروفة سلفاً لدى المؤمنين (وجود الله وخلود النفس)،

ليخلص إلى نتيجة مفادها أن كتاباته موجهة لإقناع الكافرين (بالدين أو بالأخلاق) الذين – فى رأيه – لن يقتنعوا إلا إذا تم إثبات حقائق الدين السابقة بالعقل الطبيعى، وكأن ديكارت يستبق ما يمكن أن يوجه إليه من انتقادات بأنه لم يستخدم الدين فى الوصول إلى الحقائق التى يريد الوصول إليها، وبأن هذه خطوة رئيسة فى سبيل إقناع الكافرين الذين لا يقتنعون إلا بالعقل المحض. وفى نصه الثانى يعطى ديكارت ما يقوم به من تأملات ومبادئ مختلفة عما تعود عليه المؤمنون، مشروعية كبرى لا ترقى إليها أية مشروعية أخرى، ألا وهى مشروعية " مجمع لتران " نفسه والبابا ليون العاشر، التى تستند إليها محاكم التفتيش، وكأن إنتاج ديكارت الفلسفى أراد صاحبه أن يصنفه ضمن الحملة على الكافرين، وكأنه تكليف رسمى أيضًا من قبل المشروعية الدينية المتشددة بشكل شخصى لديكارت وأقرانه، أى للفلاسفة المسيحيين باستخدام أشد الأسلحة العقلية فتكًا، وهذا ما أعطى ديكارت – كما يقول – هذه الجرأة التى سيجدها من يقرأ كتاباته، فيعرف السبب الذى من أجله استخدم العقل الإنسانى بهذه الثقة، وذلك اليقين، وهو ما يُظهر فى الوقت نفسه إحساس ديكارت العميق بجرأته غير المعهودة مقارنة بالكتابات الأخرى؛ لذا كان لابد من خلق نوع من التبرير القوى الذى لا يتشكك فيه أحد، إنهما محاولتان دؤوبتان لديكارت لتمرير كتاباته التى أحس بأنها تخرج عن المسموح به دينيًا.

إذن لابد من وضع ديكارت داخل سياقه التاريخى لنفهم مغزى نصوصه ومحاولاته المستمرة لإخفاء هذا الجانب المهم وغير المسبوق فى تاريخ الفلسفة الحديثة. وفى هذا السياق سنفهم أيضًا سلوك ديكارت

وحرصه الكبير وحذره المستمر؛ فالمتابع لحياته وأسفاره يلمح هذا الشعور بالخوف الذى تمثل فى عدم الإفصاح عن عنوانه مستعيضًا عنه بإعطاء عنوان ناشره، أو أحد أصدقائه لمن يريد مراسلته، وتفكيره بنشر بعض كتبه بعد وفاته، وإرجائه بالفعل نشر البعض منها، إضافة إلى عدم إعطائه بيانات حقيقية وكاملة لأحد عن مقاصد سفره، وفى السياق نفسه يمكن تفسير حرصه الشديد على أن يقرأ رجالات الدين ما يكتبه قبل نشره، وكأنه أراد أن يحصل على هذا الترخيص الدينى ولو معنويًا عندما يقرأ أعماله أحد تقاة الكنيسة الكاثوليكية.

وسنحاول رصد واقعة مهمة لكى نؤكد وجهة نظرنا التى طرحناها بخصوص موقع الدين فى فلسفة ديكارت، هذه الواقعة تتمثل فى موقف ديكارت تجاه جاليليو، وهى القضية التى عُرفت فى العصر الراهن تحت اسم " صمت ديكارت "، واختلف عليها كبار الفلاسفة المعاصرين، وهى المتمثلة فى عدم التزام ديكارت بقضايا عصره التى تمثلت فى طغيان الكنيسة على العلم والعلماء، عندما آثر ديكارت الصمت حيال اضطهاد الكنيسة لجاليليو؛ لذا يحلو للمعلقين مقارنة موقف ديكارت بسقراط الذى لم يلتزم الصمت حيال طغيان **la tyranie** الحكومة فى أثينا، ولا حيال طغيان البداهة الخادعة **l'opinion** ، لم يسكت سقراط، واستغل كل مكان يتجمع فيه الناس (الاجتماعات، والأسواق، والملاعب، والأعياد .. إلخ) ليكشف عن الطغيان فى صورتيه، الذى رآه قد تسلل إلى عقول الناس إثر التربية الخاطئة التى أُقيمت على التقليد **imitation** فى مقابل التفكير الحر، ولهذا دفع حياته ثمنًا لالتزامه

كفيلسوف يرفض الصمت، وهو ما دفع هيجل ليطلق عليه "بطل الإنسانية"(٧)، وإذا كان البعض مثل ألبير كامى فى [illegible]ض الالتزام بقضايا العصر، وبهذا أيدوا صمت ديكارت؛ لأن فى اعت[illegible]م : الفلسفة علم، ومن ثم فهى محايدة مثل كل العلوم، لا تهتم إلا بالبحث عن الحقيقة بعيداً عن قضايا عصرها - فسنجد أن فريقاً آخر على رأسه الوجوديون وقفوا ضد صمت ديكارت لاعتبارهم الالتزام بقضايا العصر يمثل قيمة أخلاقية، حيث إن المثقف الحقيقى - كما يرونه - ملتزم وليس محايداً، من هنا ينظر ميرلوبونتى إلى صمت ديكارت، بأنه برفضه الحديث دفاعاً عن نظرية جاليليو فقد رفض ضمنياً الدفاع عن نظامه الفلسفى نفسه المستوحى من فيزياء جاليليو، فصمت ديكارت كما يراه ميرلوبونتى تشجيع للكنيسة، ودفاعه عنه لو تم هو اعتراف بحق جاليليو النسبى ضد سلطة الكنيسة المطلقة؛ لأنه يرى الفلسفة وبحثها عن الكائن المطلق ليسا محايدين حيال الأخطاء المتعارضة فى عصر من العصور، " فالمطلق الفلسفى " ليس له مكان محدد بل يوجد حيث يوجد الفيلسوف، وعلى الفيلسوف أن يدافع عن الحقيقة الفلسفية حيث هو موجود (عصراً ومكاناً)(٨) وهو ما دفع سارتر للقول بأن المثقف الذى لا يلتزم بالدفاع عن قضايا عصره العادلة نذل saloud ، أى خائن للفلسفة وقيمها.

ومع أن هذا النقاش المعاصر كان له ما يبرره من دوافع ترتبط بعصرنا أكثر من ارتباطها بعصر ديكارت، إلا أننا سنرى أن صمت ديكارت لم يكن إلا تقية يتفادى بها المضايقات التى يمكن أن يتعرض لها لو جاهر برأيه الحقيقى فيما لو أعلنه على الملأ، وديكارت لديه مشروع علمى فلسفى يريد إنجازه، ولا يريد له أن يتعطل. لكن ما الذى

يجعلنا متأكدين إلى هذه الدرجة من وجهة نظر ديكارت تلك من قضية جاليليو ؟ ما يجعلنا متأكدين، بل يثبت فى الوقت نفسه وجهة النظر التى انتهجناها فى هذا الموضوع هو تلك الرسالة التى أرسلها ديكارت نفسه إلى صديقه مرسن سنة ١٦٤١، ليعبر بها عن وجهة نظره الحقيقية بخصوص هذا الموضوع، وهو ما لم يستطع أن يجاهر به، ويكتبه للعموم للأسباب التى ذكرناها، يقول لمرسن : " قررت أن أقاتل بمجمل أسلحتى هؤلاء الذين يخلطون بين أرسطو والكتاب المقدس ويقومون بإساءة استخدام سلطة الكنيسة، أى هؤلاء الذين أدانوا جاليليو(...) إننى على ثقة من قدرتى على بيان أنه ليس ثمة عقيدة من عقائد فلسفتهم تتفق مع الإيمان، مثلما تتفق نظرياتى معه"[٩]. وإذا احتُج بأن كلام ديكارت يؤكد صراحة اتفاق نظرياته مع الإيمان؛ فهذا لأن الخطاب موجه إلى صديقه الأب مرسن، وهو رجل دين، وما كان له أن يصدمه، لكن الأهم فى الخطاب هو موقف ديكارت الحقيقى من محاكمة جاليليو، وهو الموقف الذى لم يستطع الجهر به، وآثر أن يحتفظ به لنفسه، أو الإعلان عنه فى الحدود الضيقة لأحد المقربين منه.

أهمية نص (محاورة) البحث عن الحقيقة :

يأتى هذا النص ليؤكد ما ذهبنا إليه فى موقع الدين فى فلسفة ديكارت، أولاً لأنه يصرح بما لا يدع مجالاً لأى شك فى ذلك، وفى عنوان محاورته : "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى الذى وحده ومن

دون نجدة الدين أو الفلسفة ..."[١٠] أى أن ديكارت يستبعد الدين كما يستبعد الفلسفة كطرق يمكن أن نتوصل بها إلى الحقيقة، أو نبحث بها عن الحقيقة، وأهم ما يؤكد اختياره هذا ثانيًا هو أنه قد اختار وبكل حرية مصطلحًا لم يكن يروق لرجال الكنيسة، وكان مستخدمًا من خصومها، بمحض إرادته، اختار ديكارت مصطلح "الإنسان المستقيم" (المثقف) **l'honnête homme** وكما سنرى فقد كان هذا يعنى فى القرن السابع عشر : الإنسان الذى يرضى ضميره الذاتى، أى الإنسان الذى يتصرف تبعًا لإرادته هو، وليس تبعًا لشروط التصرف الموضوعة للمؤمنين من قبل الكنيسة الكاثوليكية، وأكثر من ذلك ثالثًا أن ديكارت يُعلى فى هذه المحاورة من شأن "الشك" ويضعه فى مرتبة تكاد تكون هى محور الارتكاز لهذه الفلسفة الديكارتية على الإطلاق، فيقول على لسان بوليندر : "أستطيع إذن تأكيد أنى بدأت أعرف نفسى فى الوقت الذى بدأت فيه الشك .."[١١]، وعلى لسان إيدوكس : ".. عندما يعرف الإنسان استخدام شكه بشكل مناسب يمكنه أن يستنبط منه معارف يقينية جدًا، وحتى شديدة اليقينية وشديدة النفع .."[١٢] وعلى عكس ما يمكن أن يُفهم لأول وهلة من أن المعارف اليقينية وشديدة النفع هى الهدف النهائى من الشك، نجد هنا أن الاحتفاظ بالشك نفسه هو الذى من شأنه توليد هذه المعارف، فما دام الإنسان فى حاجة دائمة إلى معارف يقينية وشديدة النفع لحياته المستمرة فى الواقع، فهو بالتالى فى حاجة إلى الاحتفاظ بمفتاح هذه المعارف، ومصدرها الأكيد (الشك)، كما نفهم المعنى نفسه عندما يسأل إيدوكس السؤال التالى لبوليندر : " قل لى إذن

من أنت شخصيًا؛ باعتبارك تشك؛ لأن هذه هى النقطة الوحيدة، حيث إنك لن تستطيع معرفة أكيدة بأى شىء آخر .."[١٣]. وهو ما يدلل على الأهمية القصوى التى يحظى بها الشك لدى ديكارت فى هذه المحاورة، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد. والآن سنحاول إلقاء الضوء على هذا النص (المحاورة) المهم[١٤].

نص ديكارت هذا يقع فى تسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط، وكما أسلفنا لم يُنشر إلا بعد وفاته، وهو عمل غير مكتمل، بمعنى أن ديكارت نفسه لم ينهه، وليس لأن أجزاء منه قد فُقدت[١٥] ، والأعمال غير المكتملة لدى ديكارت مسألة معروفة لتكرارها، ومن هنا فهذه المحاورة ليست استثناءً، ولهذا اعتبر البعض أن نصوص ديكارت كانت نصوصًا مفتوحة، أى غير مكتملة، ولعل النص الوحيد الذى لم يتغير أبدًا لدى ديكارت – حسبما يرى البعض الآخر – هو "تأملات فى الفلسفة الأولى"[١٦]. فعلى سبيل المثال يكتب ديكارت سنة ١٦٢٨ رسالته "قواعد لإرشاد العقل" **Les Regles pour la direction de l'esprit** يقترح فيها إحدى وعشرين قاعدة، وهو كتاب غير مكتمل، كذلك يكتب فى عامى ١٦٤٧، ١٦٤٨ رسالة أخرى تحت عنوان "وصف الجسد البشرى" **la description du corps humain** ، وبقيت أيضًا رسالة غير مكتملة كما بقيت محاورتنا هذه، وما يميز هذا النص أيضًا أنه غير معروف على وجه الدقة زمن إنجازه، ولا الظروف التى دفعت ديكارت إلى كتابته، وعلى الرغم من أن ثمة تواريخ شديدة الاختلاف قد افتُرضت لهذا النص، فإنها جميعًا تستبعد مرحلة الشباب؛ ذلك لأن المحاورة قد

اشتملت على بعض الموضوعات المتأخرة فى مؤلفات ديكارت أو تعرضت لها[١٧]. لكن الملاحظ على هذا النص (المحاورة) أنه يُظهر وجهًا تعليميًا وتربويًا بارزًا، ولعل هذا الأمر ظل حلمًا يراود ديكارت الذى أراد بعد نشره " لتأملاته " وضع كتاب جديد يعرض فيه فلسفته للمدارس آملاً أن تشيع هذه الفلسفة لا بين العلماء وحسب، بل بين الطلاب كذلك، وخاصة بين طلاب مدارس اليسوعيين، أساتذته القدماء، ولكنه لم يجد منهم أى تشجيع، وظهر الكتاب فى عام ١٦٤٤ بعنوان "مبادئ الفلسفة"[١٨].

ما يمكن استنتاجه إذن أن هذه المحاورة تدخل ضمن مشروعات ديكارت التعليمية التى أراد من خلالها نشر فلسفته على نطاق واسع، والاختلاف البسيط بين "مبادئ الفلسفة" ومحاورتنا هذه، هو ذلك الأسلوب المشوِّق الذى ربما استوحاه فيلسوفنا من المحاورات الأفلاطونية المعروفة، والتى جعلت فلسفة سقراط وأفلاطون تنتشر على نطاق واسع، لكن اختزال هذا العمل فى هدف بيداغوجى يخفى عديداً من الجوانب الأخرى التى تكمن فى المحاورة.

هنا علينا الالتفات إلى ما كان يبديه ديكارت من انتقادات لهؤلاء المتعلمين الذين وجدهم يعرقلون الفطرة السليمة بما يثيرونه من حجج محفوظة، وجدل ممجوج، ومن هنا اقتنع بأن الجدل الذى يبديه المتعلمون لا قيمة له، لأنه لا يوصل إلى الحقيقة التى يبغيها، إضافة إلى عدم قدرة هذا الجدل على استنتاج الجديد؛ إذ وجده مجرد إعادة واجترار لما لديهم لعجزهم المستمر عن اكتشاف الجديد. كان ديكارت يبحث عن فلسفة حقيقية (حقة) "فهى بحث عن الحكمة، ومن شأن الحكمة أن تكون

نوراً مشعًا للإنسان يقوده فى الحياة العرفانية إلى المثالية والكمال"(١٩).
كان هدف ديكارت إذن هو البحث عن وسيلة تساعده كما تساعد غيره للاهتداء إلى الحقيقة بواسطة النور الفطرى الذى نحمله فى ثنايانا جميعًا، ألا وهو نور العقل؛ وذلك للخروج من فوضى الآراء والحجج التى يثيرها المتعلمون فى زمانه، وكل منهم يعتمد فى ذلك على مدارس وتيارات فكرية شتى تتضارب فيما بينها، فتعمق الفوضى وتعرقل الوصول إلى هذه الحقيقة المرجوة.

ديكارت هذا الإنسان الحالم قد مثَّل نفسه فى هذه المحاورة بشخصيتين : الأولى تمثله وكأنه فى نهاية الجزء الأول من "مقال المنهج" أى "بوليندر" الذى لم يطالع الكتب، ولم يتابع تعليمًا مدرسيًا، ويحاول أن يكتشف الحقيقة من خلال التأمل الشخصى، والسفر، والشخصية الثانية التى تمثله أيضًا هى "إيدوكس" وهو ديكارت فى مرحلة وصوله إلى الحكم الصائب على الأشياء من خلال ذلك النور الطبيعى الفطرى الذى أحسن إدارته فى بحثه عن الحقيقة، فديكارت الحالم، الإنسان الطبيعى، مثله فى ذلك مثل كل البشر يحلم بالوصول إلى الحقيقة، الذى لن يكون إلا وصولاً لإنسان طبيعى لا يختلف عن الآخرين فى شىء، وهنا يراهن ديكارت على الفطنة العفوية الغريزية لدى الإنسان أكثر من مراهنته على المتعلمين الذين أصبح تعليمهم عائقًا لهم أكثر من كونه وسيلة. ألم يعترف ديكارت نفسه فى القاعدة العاشرة من كتاب "مقال المنهج" بولادته وفى نفسه نزعة عقلية تجعله يجد اللذة القصوى فى اكتشاف الحجج بنفسه ؟ أليس هذا أيضًا سببًا معقولاً يجعل من ديكارت حريصًا

على أن يجد الجميع هذه اللذة القصوى نفسها فى الاكتشاف الذاتى، خاصة وأن العقل الإنسانى (الحس السليم) واحد فهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ؟ ولهذا يصبح مسعاه فى محاورته بلسانه هو "أن أُخرج إلى النور الثروات الحقيقية لنفوسنا، عندما أفتح لكل فرد الطريق الذى سيجده فى ذاته نفسها، ومن دون الاستعانة بأى شىء آخر"(٢٠).

ولم تمنع هذه الرغبة من أن يتم هذا الوصول الذاتى إلى الحقيقة بمساعدة خارجية مخلصة يكون هدفها الرئيس الأخذ بيد هذا المبتدئ رويدًا رويدًا، ليس بإغراقه من خلال حجج وبراهين المدرسيين التى لا قيمة لها، ولكن بجعله يفكر بنفسه هو، ويستنبط الأفكار المترتبة فى تسلسلها على تفكيره الذاتى؛ حتى يكتشف بنفسه القدرة غير المحدودة لهذا النور الطبيعى الفطرى الكامن فى داخله، ولعل فكرة هذه المساعدة الخارجية المنتجة وليست المعرقلة قد تغلغلت فى نفس ديكارت عندما كان ضابطًا بهولندا سنة ١٦١٨، وأقام نقاشًا منتجًا وحيًا مع إسحق بيكمان **I.Beckman** الذى كان له أعظم الأثر فى توجيهه توجيهًا علميًا، وتعلم ديكارت منه الكثير؛ لذا لا نستغرب عندما يتوجه ديكارت إليه بالقول : "إنك فى الحقيقة الإنسان الوحيد الذى أيقظنى من خمولى، وأعاد إلى نفسى علمًا كاد أن ينمحى من ذاكرتى، وأرجع عقلى إلى جليل الأعمال بعد أن كان قد نبذها"(٢١). ولم ينقطع هذا الدأب الديكارتى فى تبنيه سياسة الحوار المنتج مع الآخرين سواء المعارضين له أو المتفقين معه؛ لأنه أحس بنفسه أنه يؤدى إلى نتائج ممتازة لم تكن فى الحسبان، خاصة لدى عقلية قادرة على الاعتراف بأخطائها،

وتقدر حرية الفكر، ففى الأول من نوفمبر سنة ١٦٣٥ يوجه ديكارت خطابًا آخر إلى صديقه هيجن **Huygens** قائلاً : " كان لى الشرف أن أتحاور معك ثلاث ليال، تأثرت خلالها بامتياز عقلكم، وصلابة أحكامكم، التى لم تخف الحقيقة، ولا أعرف أحدًا فى العالم استطاع أن يكشف لى كل أخطائى مثلكم .."(٢٢). وهنا يمكن القول إن حوار ديكارت هذا هو فى الوقت نفسه عودة وحنين لفيلسوفنا فى استعادة تجربته الأولى لأهمية المساعدة الخارجية المتمثلة فى التوجيه والحوار فى رحلة البحث عن الحقيقة. ونظرة إلى بداية الحوار يمكن لها أن تؤكد هذا المنحى الذى سلكناه، خاصة عندما يربط دور العقل الطبيعى بدروس مستمرة من رجل حكيم؛ وذلك لكى يتحرر "من المذاهب الخاطئة التى استولت على عقله، وأن يلقى بالأسس الأولى لبعض من علم قوى، وليكشف كل الطرق التى سيمكنه بواسطتها أن يسمو بعلومه إلى أقصى درجة يمكن أن تبلغها"(٢٣).

ويبقى التساؤل المشروع عن زمن كتابة هذه المحاورة، وهو سؤال سيجرنا فى الوقت نفسه إلى السبب المباشر الذى من أجله أنجز ديكارت هذه الصفحات غير المكتملة. قلنا إن أغلب الدراسات قد استبعدت المراحل الأولى من حياة ديكارت؛ ولهذا يتم التركيز عمومًا على الفترة الأخيرة من حياته، وعلى وجه الخصوص السنة الأخيرة التى قضاها ديكارت فى استوكهولم قبل أن تخطفه المنية فى صباح الحادى عشر من فبراير سنة ١٦٥٠ . المعروف أنه فى سنة ١٦٤٩ دعت الملكة الشابة كريستين (٢٣ عامًا) فيلسوفنا للإقامة فى بلاطها بالسويد، وكانت

الدعوة قد وصلت إلى ديكارت فى وقت لا يستطيع فيه رفضها على الرغم من تردده فى البداية لقبولها، فقد كانت هولندا - حيث يقيم - مليئة بالأصوات التى ارتفعت ضد فلسفته وأفكاره، فلم تعد ذلك المرتع الذى قضى فيه الجزء الأكبر من حياته فى الهدوء والسكينة التى كان يتوق إليهما، ووصل الأمر إلى الدسيسة ضده وتضييق الخناق عليه من قبل هذه التيارات المعادية له، ولن يكون الأمر أفضل حالاً إذا قرر العودة إلى فرنسا التى كانت فى هذا الآوان تغوص فى اضطرابات عارمة، وهو ما لا يمكن له أن يتحمله، وهو الباحث الدائم عن الراحة والهدوء. من هنا قَبِل دعوة الملكة وسافر إلى العاصمة السويدية، حيث تبدأ فيها حياة جديدة لفيلسوفنا. وتختلف الآراء حول هذه الفترة الأخيرة من حياة ديكارت، فإذا كان المعروف أن عمل ديكارت الرئيس فى تلك المرحلة هو إعطاء دروس لتلميذته الملكية فى الصباح الباكر فى الفلسفة، كما تشير أغلب المصادر، فإن البعض وإن كان لم ينكر عمل ديكارت هذا، إلا أنه أضاف أن الملكة "طلبت منه أشعارًا بالفرنسية للباليه، ومشروعًا لأكاديمية، وهو ما كان بعيدًا عن الاهتمام الفلسفي"[٢٤]، وأكثر من ذلك تذهب السيدة موتفيل **Motteville** فى مذكراتها إلى تعليل موت ديكارت إلى أن الملكة كريستين لم يعجبها طريقته فى التفلسف[٢٥]، وهذا نفسه ما نفاه مؤرخ الملكة، إلا أن العودة - كما فعل أغلب مؤرخى ديكارت - إلى رسائل ديكارت نفسه توضح ملابسات هذه الفترة، وخطاب ديكارت الذى أرسله فى ١٥ يناير سنة ١٦٥٠ - أى قبل وفاته بأسابيع قليلة - إلى صديقه كونستنتان هيجن **Constantin Huygens**

وهو لم ينشر بالفرنسية إلا سنة ١٩٥٠ ؛ أى بعد نشره بالهولندية فى العام نفسه للمرة الأولى فى الدورية Revue de Gide – يقول ديكارت لصديقه : "إن قوة الحقيقة تجبرنى أن أقول شيئًا عن هذه الملكة الرائعة. إنها فاضلة وشديدة السمو والتميز، والمعروف أنها تحوز تقدير من يراها، ولديها دائمًا أفضل العقول ممن يحوزون لمرات عديدة شرف أن تسمعهم بشكل خاص (...)"(٢٦). كان هذا هو رأى ديكارت فى الملكة التى دعته، وهو رأى يتسم بالصراحة لأنه جاء فى رسالة خاصة، كان من الممكن أن يقول فيها كلامًا مختلفًا، لو كان له بالفعل رأى مختلف فى الملكة، أكثر من ذلك يضيف ديكارت : " بالنسبة لى أُعجب بها وأراها كل يوم أكثر فأكثر، وأعرفها بعيدة جدًا عن كل ضعف بنات جنسها، وسيدة بلا منازع على كل عواطفها، ولا أستطيع التفكير دون سخط عميق على ما كان يُقال عنها مما أتذكره مما كان يُقال قبل رحيلى من هولندا بوقت قليل. تأكد بأنها مختلفة عن اللوحة التى ربما لم يرها أصحاب العقول الصغيرة إلا من بعيد .."(٢٧). نستخلص إذن أن علاقة ديكارت بالملكة لم تكن فقط طيبة، ولكنها كانت أكثر من ذلك، إذا أخذنا بعين الاعتبار وصفه لفضائلها، بل الدفاع عما يُقال عنها من قبل البعض، إلا أن ديكارت نفسه كتب فى اليوم ذاته رسالة أخرى لصديق آخر هو بريجى Brégy ، فمن خلال رسالته هذه التى كتبها فى ١٥ يناير سنة ١٦٥٠، يمكننا أن نستنتج شيئًا آخر. كان ديكارت رجلاً شديد الحرص قد عودنا عليه لا يعلن عما سيقوم به أو ينتوى عمله مسبقًا، وإن كان شعوره نحو الملكة لم يتغير، وفى هذا الخطاب يعترف ديكارت

بأن الرغبة فى العودة إلى صحرائه تزداد يومًا بعد يوم "ولا أعرف إذا ما كنت سأستطيع الانتظار هنا حتى عودتك، وذلك ليس لأنه لم يعد لدى الجهد بصورة كاملة لخدمة الملكة، أو أنها لا تعاملنى بحسن التفات لذا رغبت فى ذلك، ولكنى لست هنا فى بيئتى ولا أرغب إلا فى الهدوء والراحة"(٢٨). هذه السنة المضطربة التى قضاها فيلسوفنا وهو مضطر للاستيقاظ فى ساعات صباح الشتاء الإسكيندنافى القارس ليتحدث فى الفلسفة إلى الملكة ، وهو الذى تعود أن يبقى فى فراشه حتى الظهيرة – كانت ثقيلة عليه وعلى ما يمكن أن تتحمله صحته الهشة، لكنه كان لابد أن يعد كتابًا تعليميًا يليق بالملكة التى أُعجب بها كما رأى البعض بخصوص هذه المحاورة "هذه الخطة الضخمة ربما كان المقصود بها أن تقدم إلى الملكة كريستين مجمل ما هو جدير بها .."(٢٩). وقد ارتأت جنفيف روديس لويس أيضًا إمكان أن يكون ديكارت قد بدأ محاورته هذه قبل وفاته بقليل بمدينة استوكهولم(٣٠). ولعلى أميل أيضًا إلى ذلك الرأى، وأضيف أنه ربما قرر ديكارت كتابة تلك المحاورة عندما قرر السفر وترك السويد نهائيًا؛ لكى يضع فى يد الملكة التى يقدرها شيئا ما نافعًا فى الفلسفة، يبسط من خلاله فلسفته كلها، وعلى الرغم من أن المحاورة لم يستكملها، فقد احتوت على فهم أكبر، وتعميق حقيقى لأفكار ديكارت الأساسية، وما كان يتأتى له ذلك لو كان " البحث عن الحقيقة ... " قد كُتب فى فترة زمنية قبل مرحلته الأخيرة بالسويد. لكن السؤال الملح: ما الذى يعنيه ديكارت بالحقيقة ؟ وما ذلك النور الطبيعى الذى يعتمد عليه ؟

فى رسالة منه إلى صديقه مرسن فى ١٦٣٩/١٠/٩ يقول ديكارت:
"لكى نتعرف على الحقيقة، يكفى أن نتأملها بإمعان نظر؛ إذ ليس ثمة تعريف منطقى يمكن أن يعلمنا ما الحقيقة إذا كنا لا نعرفها بطبيعتنا"[٣١].
الحقيقة بهذا الفهم الديكارتى تكمن فينا، ولا نكتسبها من الخارج؛ إذ إن أهم ما يميزها هو الوضوح والتميز الذى لا ينجلى إلا بسلاح الشك.
ويُعرِّف ديكارت فى الرسالة ذاتها النور الطبيعى بأنه "هو اسم آخر للعقل"[٣٢]، كما أنه يطلق على الحدس "النور الفطرى والغريزة العقلية التى نكتسب بها المعارف. وكتب عن الحدس العقلى يقول : "هو تصور يقينى لذهن يقظ صاف وهو يتولد فقط من نور العقل الطبيعى"[٣٣].
ويلعب نور العقل الطبيعى لدى ديكارت دورًا مركزيًا، فهو أداته التى لا يمكنه الاستغناء عنها للتمييز بين الخطأ والصواب؛ إذ بفضل هذا النور – "نور العقل الطبيعى" – يجد فى ذاته المفاهيم الأولى الواضحة : "وليس فى ذاتى ملكة ولا قوة أخرى لتمييز الخطأ من الصواب أستطيع أن أثق بها أكثر من هذا النور الطبيعى، أو يمكن أن تعلمنى أن ما أعتبره صحيحًا هو غير ذلك"[٣٤].

نظرة إلى المحاورة :

يبدأ النص بمقدمة تمهيدية للتعريف به، ويضع أمام القارئ الغرض الذى من أجله تم تأليفه، ومن هنا يركز على : (أ) من يتوجه إليه النص (الإنسان المستقيم (المثقف) أو الطبيعى الذى تُرك على فطرته فلم يتعلم

فى المدارس ولم يتأثر بالدين)، (ب) طريق التحررمن المذاهب الخاطئة وتأسيس علم صلب، واكتشاف طرق تسمو بعلومه (العقل الطبيعى أو مساعدة خارجية من قبل رجل حكيم). وبعد أن يؤكد أن هذا ما يهدف إليه من خلال نصه، يستدرك لئلا يعتقد البعض فى صعوبة مهمته هذه، فيطمئن القارئ أن ما يقترحه لا يتطلب إمكانات فردية خاصة، ودون أن يعلق صراحة بأن ما يقترحه منهجًا ما، يلقى بمفردات منهجه بسلاسة منقطعة النظير، وهى مقصودة لكى يكسر حاجز خوف الإنسان العادى من المصطلحات التى تعرقل أحيانًا فهمه. من هنا يدفع ديكارت بإمكان وصول أى فرد إلى ما وصل هو إليه، وبطريقة بسيطة وسهلة وبعيدة عن المدرسية.

فى هذه اللحظة يقدم ديكارت اختياره لأسلوب الحوار باعتباره مناسبًا جدًا لهدفه الذى أعلنه، ثم يبدأ فى تقديم أطراف الحوار : ثلاثة أصدقاء : إيدوكس، الذى يمثل الحس السليم ونور العقل الفطرى، والذى يملك الحكم الصائب، والقادر على الاستنتاج بفضل حسن استعماله لنوره الطبيعى. وبوليندر، ويمثل ذلك الرجل المستقيم (المثقف) الذى لم يتعلم فى المدارس ولا من الكتب، ولعله يمثل أيضًا ديكارت – كما أسلفنا – فى نهاية الجزء الأول من مقال المنهج، وهو الذى جمع ما تعلمه من خلال تجارب أسفاره. ثم أخيرًا إبيستمون، الذى يمثل المتعلم والباحث المدرسى المشبع إلى حد كبير بما تعلمه فى المدارس على يد أساتذته، وما قرأه فى الكتب، إضافة إلى مجمل ثقافته العامة، ولعل ديكارت قد استعان بهذه الشخصية من حوارات جاليليو، فكما يرى بعض الباحثين

أن إبيستمون هو ما يماثل شخصية سيمبليسيو **Simplicio** لدى جاليليو.
ويتخيل ديكارت أن إبيستمون وبوليندر جاءا لزيارة صديقهما إيدوكس فى مسكنه الريفى، وهنا نلاحظ رمزية هذا المسكن الريفى، حيث الجو الذى حرص ديكارت دائمًا على السكن فيه بعيدًا عن الضوضاء والصخب، وقريبًا من الهدوء والسكينة اللذين نشدهما طيلة حياته.

وتبدأ المحاورة فى ذلك الجو المتخيل (مكانًا، وموضوعات، وأحاديث)، بإيضاح ذلك التباين فى وجهات نظر كل من إيدوكس وإبيستمون تحت نظر بوليندر العارف بقصور معارفه، والذى يتوق إلى أن يتعلم شيئًا من حوار كليهما، ويتطور الحوار حول رغبة المعرفة ليكشف عن الهوة بين الرجلين : رغبة شديدة فى المعرفة من طرف إبيستمون تتم عن طريق التعلم، وعدم رغبة فى تعلم شيء من طرف إيدوكس المكتفى بعلمه البسيط. وبعد تبادل الإطراء بينهما، يقترح إيدوكس أن يبقيا معه خلال الموسم ليعرض عليهما ما يعرفه ويطلق عليه القليل، وفى الوقت ذاته طريقته فى الوصول إلى هذه المعارف وغيرها، مستبعدًا التخصصات العلمية المحضة، مبقيًا على ما أسماه بالعلوم النافعة، ويرتضى صديقاه البقاء شاكرين الدعوة، ويحاول إيدوكس أن يستدر فضول بوليندر مرة بما سيتعلمه جديدًا عليه ولا يقتضى قدرات خاصة، ومرة أخرى بأن عقله المتحرر من الأفكار المسبقة قادر على الوصول إلى ما يدعوه إليه من حقائق، بل يفوق فى ذلك إبيستمون المتعلم والذى يعوقه ما تعلمه عن متابعة نور عقله الفطرى، ويظهر كل طرف ما يود أن يجنيه من ذلك الحوار، ويظل بوليندر معتقدًا بأنه سيتعلم من كلا الطرفين المسائل التى

لا يعرفها على الرغم من كونها معروفة للجميع، ويُمنِّى إبيستمون نفسه بمعرفة أخرى تدخل فيما هو غير معروف للمتعلمين وهو مجال السحر، ويعطى إيدوكس لكليهما الأمل فى الوصول إلى بغيته، مفضلاً البدء بالحوار مع بوليندر مؤجلاً مطالب إبيستمون، ويبدأ إيدوكس (ديكارت) بوضع المخطط الذى ينوى مقاربته معهما، وهو مخطط طموح، لاحظنا من قبل طموحه هذا، وهو ما لم يستطع أن يكمله فى محاورته التى قطعها قبل أن تنتهى. ولا يمر هذا دون تدخل إبيستمون مبينًا صعوبة ذلك دون الاعتماد على الأساتذة، ويستمر النقاش بينهما؛ حيث يحاول كل منهما إثبات وجهة نظره، لينتهى الأمر بترك إبيستمون المجال لإيدوكس وبوليندر لنرى كيف يترك بوليندر نفسه ليقوده إيدوكس اعتمادًا على الشك والبراهين المترتبة عليه، ليستنتج بنفسه يقينه الذى يجده كامنًا فيما يفكر فيه، وكأن الحوار قد أخذ على عاتقه متابعة أسلوب تأملات ديكارت الميتافيزيقية، ويستمر الحوار بوتيرة شديدة البطء إلى أن ينقطع عند الكوجيتو، وفى الأخص حول مسألة طبيعة الكائن المفكر، ولا يحقق ديكارت ما وعد به فى بداية محاورته، خاصة فى مقدمته التمهيدية، لينتهى النص دون أن يُستكمل أبدًا.

ونعتقد أن الحياة لم تعطِ ديكارت الوقت لينهى حواره هذا، الذى بدا فى فقرات كثيرة شديد النضج والحنكة، وهو ما لم يكن قد وصل إليه قبل ذلك فى أى من نصوصه الأولى التى شابها دائمًا كثير من الاعتراضات، كما أنه استخدم كثيرًا من أمثلته التى جاءت فى كتابات أخرى له، وبعضها فى كتاباته الأخيرة.

ويمكننا تسجيل بعض الملاحظات العامة على هذا النص، منها طول العنوان الرئيس الذى اشتمل تمامًا على محتوى المحاورة، وهو ما كان متفقًا مع عناوين كتب هذا العصر، كما يمكننا أن نلاحظ بسهولة المقابل للنور الطبيعى، وهو النور الإلهى، شديد الاستخدام فى النصوص التى اعتمدت على الكتاب المقدس فى جل العصور، وكأن ديكارت باستخدام تعبيره "النور الطبيعى" يود مُذ البداية – وهو ما ضمنه عنوانه بنفسه – استبعاد الدين تمامًا، ولا يغيب عن نظرنا مغزى استخدام ديكارت بعض الأمثلة التى تجعل نصه قريبًا للإنسان العادى (المستقيم (المثقف)، وهى تسمية أيضًا لا دينية كما رأينا)، كالفلاح الذى يكتشف مصادفة كنزًا تحت قدميه[٣٥]، وهو مثلاً كان قد ضربه من قبل فى كتابه "مبادئ الفلسفة" الذى أراد له أن يكون تعليميًا، كما كان قد ضربه من قبل أيضًا فى بداية القاعدة الرابعة من " قواعد لهداية العقل "، وأيضًا كاستخدامه لمثل الرحالة الذين يتوهون لاختيارهم الطرق الفرعية المختصرة[٣٦]، أو عندما يتحدث عن العملة التى لا تختلف قيمتها إذا قيست بالمصدر الذى خرجت منه (حافظة نقود فلاح أو الخزانة العامة)[٣٧]، أو تشبيه معارف جيرانه ومعارفه مثل حقولهم التى تحيط بقطعة الأرض التى يمتلكها ... إلخ[٣٨]. كما لابد من ملاحظة أن ديكارت يبدأ محاورته هذه ببوليندر وليس بإبيستمون أو إيدوكس وهو ترتيب منطقى لما أراد القيام به؛ فالمحاورة متوجهة – فى الأساس – إلى بوليندر، وكل بوليندر آخر فى العالم؛ حيث يعقد ديكارت أمله، بل يضع كل رهاناته عليه؛ فهو يعتبره حقل التجارب الذى سيوصله إلى ما يسعى إليه لكى يثبت لإبيستمون

ولكل إبيستمون آخر ولنفسه شخصيًا دقة وصحة منهجه؛ ولذا لا نستغرب عندما نجد بوليندر يتقدم بسهولة ويسر، دون أى لبس كبير، فقط ببعض الالتباسات الصغيرة التى أرادها ديكارت، وهو نفسه الذى يقوم بمدح وتقريظ المنهج الديكارتى الذى اقترحه عليه إيدوكس. وهذا لا ينفى أبدًا أهمية شخصية إبيستمون التى تقوم واقعيًا بخدمة مشروع إيدوكس فى سرد منهجه، بسوق الاعتراضات المدرسية التى من خلالها يبين إيدوكس بساطة ووضوح وتلقائية وطبيعية منهجه، وفى هذا السياق يمكن التأكيد على أن ديكارت قد طبق عمليًا فى محاورته هذه خاصيتى منهجه (الحدس والاستنباط) فى الطريقة التى يعمل على أن يصل بها بوليندر إلى ما يأمله من حقائق؛ فهو يثير فيه أن يتحرك ذهنه بهاتين الخاصيتين دون علم بوليندر، وكأنه اختبار عملى آخر لديكارت فى تطبيق منهجه بصورة عملية. ألا يعتبر ديكارت – كما رأينا من قبل – أن الحدس هو النور الفطرى ؟ ألم يعتبر الاستنباط قوة نصل بها إلى حقيقة ما مترتبة على حقيقة أخرى أبسط ؟ ألم يعتبره فعلاً ذهنيًا يساعد المرء على الوصول إلى نتائج تترتب على معرفة يقينية أولى له ؟ كان ديكارت يعرف الاستنباط بشكل بدهى بواسطة الحدس، وهو ما يعتبره ميسرًا للجميع، بحيث لا يخطئه أحد، فى الوقت الذى يعتبر فيه الحدس حدًا أو نقطة يبدأ عندها الاستنباط.

يمكن القول إن ديكارت أراد بمحاورته تلك عدم ترك الإنسان العادى (المستقيم – المثقف) لعبة فى يد الصدفة أو الحظ، كما كان قد حدث له بالفعل، ويمكن أن يصل إلى الحقيقة، مثلما وصل هو بالفعل،

ويمكن ألا يصل على الإطــلاق. بهذه المحاورة إذن أراد ديكارت أن يعلم المنهج؛ وذلك ليقوم بإنقاذ أنوار الفطرة، وبصيرة الذهن لدى النـاس جميعًا، مؤكـدًا أن الشك يلعب دورًا شديد الأهمية والخصوبة فى نسيج المنهج الديكارتى؛ بحيث لا يمكن تهميشه ولا الاستغناء عنه ما دمنا حريصين على البحث عن الحقيقة بأنوار عقولنا الطبيعية، فنرى تقدم البحث عن الحقيقة يرتبط عضويًا بتفعيل الشك وإعادة استثماره وإنتاجه عبر مراحل اليقين المختلفة.

إعادة النظر فى مرتبة الشك لدى ديكارت:

إذا كانت وظيفة العقل هى إصدار الحكم، ففى المقابل الشك لا يصدر حُكمًا، بل يعلق **suspend** إصدار الحكم فى انتظار معرفة الحقيقة، أكثر من ذلك يقوم الشك بمساءلة العقل عن قيمة الحكم الذى قام بإصداره. من هنا فالشك هو المسعى الفلسفى بامتياز، فالفيلسوف هو المتسائل الأكبر فى هذا العالم، يقوم بحشد أسئلته فى مواجهة العالم، وحتى مواجهة نفسه عندما يقوم بالتشكيك فى مقدماته وأحكامه، لإعادة النظر فيها باستمرار، مبرهنًا عليها المرة تلو الأخرى؛ ليتأكد من سلامة هذه المقدمات وصحة تلك الأحكام، ومع ذلك فالشك ليس هزيمة للعقل، ولا يمكن الحكم عليه بعجزه عن إنتاج المعرفة من جهة أو عن معرفة الحقيقة من جهة أخرى؛ وذلك لأنه شـرط اشتغال العقـل، فبدونه (أى دون إعادة التفكير والمساءلة والفحص والتجريب) لا يمكن للعقل

تفـادى الوقـوع فى الزلل والخطأ، فـعـدم الشك فى الأفكار الجـاهزة والأفكار التى يعتقد بصـدقيتهـا ويقينهـا لا يمكن للإنسـان أن يكتشف زيفـهـا، ومن ثم سيظل بعيـدًا جدًا عن الوصول إلى الحقيقة. من هنا يصبح الشك فى ارتباطه بالعقل كالعملة ذات الوجهين؛ لأنه شك منتج، شك متجه دائمًا وبقصدية قبلية إلى معرفة الحقيقة، وهو مقابل ذلك الشك المطلق العقيم السلبى الذى يفترض عجز العقل عن الوصول إلى الحقيقة، من جهة، أو عدم وجود حقيقة أصلاً من جهة أخرى. يأتى الشك الديكارتى هنا، كشك فاعل منتج بهذا المعنى؛ حيث يتسم أداؤه بالإحكام، فيبدأ مؤقتًا حتى يتم الوصول إلى المنهج الذى سيساعد فى الوصول إلى اليقين.

لقد عرفنا الشك الديكارتى دائمًا باعتباره محاولة لوضع معارفه موضع الشك، أو بين قوسين – على حد قوله – مع الاحتراز من الأوهام والآراء المسبقة بهدف الوصول إلى الحقيقة، وليس الامتناع عنها إلى الأبد. فشك ديكارت بهذا المعنى مرحلة ضرورية، بل ربما دائمة كشرط لإنتاج الحقيقة فى ديناميات اشتغال العقل، وليس عقبة فى طريقه؛ لأن الحقيقة لا يمكن لها أن تخرج سوى من رحم هذا الشك، وكما رأينا من قبل فى " التأملات " نجد فى محاورتنا هذه، كيف حاول إيدوكس أن يأخذ بيد بوليندر ليقوم بهذه الممارسة الإيجابية ذاتها عندما ساعده فى أن يشك فى جميع معارفه، أو يضعها بين قوسين، ليخرج بالنتيجة المهمة: إنه مهما شك فى كل ما يعرف، فلن يستطيع الشك فى فكره:

"أنا أفكر فأنا إذن موجود"، وكيف برزت هنا فى هذا النص نفسه عبارة ديكارت التى كتب بها : "أنا موجود" على النحو التالى j'existe ولم يعد يكتبها كما كان يكتبها من قبل je suis . ليعتبر بوليندر كما اعتبر ديكارت من قبل أن الفكر هو الحقيقة الأولى، أى اليقين الأول الذى يمكن الانطلاق منه لمعرفة الحقائق واليقينيات الأخرى: حقيقة وجود الإنسان، ووجود الله ووجود العالم. وعلى الرغم من أن المحاورة قد انقطعت عند الكوجيتو وحول حقيقة الكائن المفكر، فإن وجود الله ووجود العالم ينطوى الوصول إليهما على ما دفعت به المحاورة عن طريق الشك المستمر، وعلى ما يدفع إليه الحوار عندما يمتد أفقيًا على استقامته، فيترك له المجال لينطلق بعفوية كما بدأ بالعفوية ذاتها.

ولعل هذا الفهم المتفق والمتعارف عليه للشك الديكارتى، قد أُعيد فيه النظر فى الفترة الأخيرة بحيث أُعطى دورًا أكبر فى المنهج الديكارتى، والحق أن الموضوع قد تم الانتباه إليه من قبل، إلا أنه لم يحظَ بالاهتمام الذى يدفع إلى إعادة النظر كما تم اليوم، ولعله بدأ عند جان فال Jean Wall الذى فطن إلى خصوصية الشك لدى ديكارت: "لشكه .. خصائص هى – فى الحقيقة – أكثر تعقيدًا مما تبدو لأول وهلة"(٣٩). وهنا عرف أن ما يظهر على أنه عادى وبسيط فى هذا الشك الديكارتى، ليس – فى جوهره – كذلك؛ فهو يخفى فى داخله هذه الثورة أو هذا الخطر الذى رآه " خطرًا يهدد فى آن معا، الدين والأخلاق والأصول العامة"(٤٠). إن فال يكتشف فى هذا الشك دورًا للإرادة، وهو ما يدفع إلى التدبر وحسن التصرف،

ويبرز كم التساؤلات المتعلقة بهذا الشك الذى وجده "أصل الكوجيتو" ومفضيًا إليه بالضرورة، وأنه معيار الأفكار الواضحة المتميزة، ويمهد للفصل بين الروحيات والماديات، بقدر ما يمهد للبرهنة على وجود الله تعالى(٤١). والحق أن اعتبار فال الشك أصلاً للكوجيتو، كان تطوراً كبيرًا، دفع البعض إلى إعادة مقاربة هذه النقطة التى لو ثبتت لأمكن لها أن تغير النظر إلى الفلسفة الديكارتية إلى حد بعيد. ولهذا يعتبره (الشك) فال أنه "كان السبيل الأقوم إلى المنهج الديكارتى"(٤٢). ولم يتوقف فال كثيراً عند الشك على الرغم من تسليطه الضوء على أهميته فى المنهج الديكارتى؛ إذ سرعان ما خطفه اليقين الديكارتى، إلا أنه لم ينسَ فى الوقت ذاته أن المضى بالشك إلى أقصى درجة هو ما أوصل ديكارت إلى اليقين: "وقد قيض لديكارت أن يتغلب على شكه، هذا آخر الأمر، بفعل توغله فيه والمضى به إلى أبعد شأو، مفجرًا هكذا أبهى نهار من أشد ليل حلكة وادلهاماً"(٤٣).

لقد فطنت جنفيف روديس لويس G.R.Louis المتخصصة الشهيرة فى الدراسات الديكارتية أيضًا - إلى أهمية الشك داخل النسق الديكارتى، واعتبرته ضروريًا للرغبة فى الوصول إلى الحقيقة: "يصبح هذا الشك المغالى فيه، أمرًا جدِّيًا عندما نريد أن نصيل إلى الحقيقة"(٤٤)، وما يهمنا هنا أنها تعتمد فى توضيح ذلك على محاورة ديكارت "البحث عن الحقيقة" التى نحن بصددها، فتستعين بإجابة إيدوكس الذى اعتبرته "يمثل الفطرة السليمة، (على) محدثه الذى يتخوف من خطر المذهب التشككى"(٤٥).

وتقوم بتحوير ما جاء فى الرد وتلخيصه على النحو التالى: " إن هذا التخوف إنما هو دليل على أن علمك ليس موضع عصمة لأنك تخاف وجود حجج قادرة على زعزعة أسسه وجعلك متشككًا من كل شىء. إذا أنت الآن متشكك، وقد تحقق غرضى، وهو أن أقلب مذهبك رأسًا على عقب بأن أثبت لك أنه غير قائم على أساس متين، فمن واجبك أن تتجاوز هذا الموقف بشجاعة أكبر، وأن تجابه ظلمة الشك وتخيلاته الباطلة، فإذا هربت منها تبعك الخوف، ولكن إذا اقتربت منها كأنك تريد أن تلمسها بيدك، تبين لك أنها ليست شيئًا أكثر من هباء وظلال، وعند ذاك تصبح أكثر ثقة بنفسك فى ظروف كهذه"(٤٦)، كما اعتبرت أن ديكارت فى كتابه هذا " البحث عن الحقيقة .. " قد لمس شيئًا لم يكن واضحًا بمثل ما وضح به فى كتابه هذا، وهو المتصل بعلاقة الفكر بالوجود؛ إذ إنها رأت أن ديكارت يضع فى كتاب "القواعد" جنبًا إلى جنب مع الأمثلة الرياضية البسيطة عبارته " إن كل واحد من الناس يستطيع أن يعرف أنه موجود، وأنه يفكر"، مستنتجة بأن هذه المعرفة هى نموذج للمعرفة الحدسية، إلا أنها تسلط الضوء على ملاحظة أساسية ألا وهى عدم وجود ما يوحى فى نصوص " القواعد " بانتباه ديكارت إلى " سبب القوة الاستثنائية فى قوله : (أنا أفكر) " وهى تنفى أن تكون هذه القوة تنبع من خلال وعى الفكر لذاته فحسب، أو حتى من خلال الشعور العادى بالوجود، ولكن ترى هذه القوة كامنة "فى اكتشاف الصلة الثابتة بين الفكر والوجود"، فتجعلهما مرتبطين وجودًا وفكرًا ومقدارًا " فأنا موجود لأننى أفكر وبمقدار ما أفكر "، وبهذا تنفى أن تكون عبارة " ينبغى أن أكون موجودًا

حتى أفكر " وهى التى جاءت فى كتاب ديكارت "المبادئ"، تنفى
بمثابة المقدمة الكبرى فى قياس ما يربط الفكر بالو
المعروف بالمعروف، فالمسألة بهذا المعنى بعيدة ع
القضايا المنطقية، باعتبارها قضية و
فى الوجود.

وتعرج روديس لويس مرة أخرى إلى كتاب "البحث عن الحقيقة .." الذى بدت فيه هذه الحقيقة الديكارتية للمرة الأولى، عندما ربط ديكارت علم الإنسان بوجوده من جهة، والشك من جهة أخرى، فتقول عن هذه الحقيقة: " وقد عبر عنها صاحب كتاب " البحث عن الحقيقة " باقتضاب يلفت النظر حيث قال : "أنت تعلم أنك موجود لأنك تتشكك" فالشك المطلق يحمل نقيضه فى ذاته. ولذلك يذكرنا ديكارت فى مستهل التأملات الثانية بكلمة أرخميدس : يكفى أن أجد نقطة ثابتة حتى أرفع الأرض"(٤٧).

وعلى الرغم من هذا الفهم المتقدم لحقيقة الشك الديكارتى وأهميته، فإن روديس لويس لم تحتمل أن يصبح الشك جوهرًا للفكر الديكارتى؛ لأن فهمها لهذا الشك يظل مرتبطًا بوظيفته، فهو ليس شكًا من دون نهاية، أو أنه يسير فى حلقة مفرغة. "خلاصة القول : عند ديكارت نوع من الحركة الدائرية وليست عنده حلقة مفرغة"(٤٨). لذا تتهلل أساريرها عند الوصول إلى اليقين، خاصة مع اليقين الكلى الذى سيضمن كل برهان وكل حقيقة قادمة مستبعدة أى إمكان للعودة إلى الشك مرة أخرى، " فالله الذى نتصوره كلى الكمال، لا يمكن أن نتصوره غير

موجود دون أن نقع فى التناقض. من هنا ينتفى كل إمكان للرجوع إلى الشك الشامل، ويصبح البرهان أكثر وضوحًا عندما نصل إلى مصدر الماهيات الرياضية، وفى الوقت نفسه، مصدر كل حقيقة"(٤٩). إضافة إلى أن الباحثة حينما همت ببيان مسئولية الخطأ عند ديكارت، وذكرت أسبابًا عديدة، لم تفهم علاقة الشك بالأمر؛ إذ تقول : " .. ذهبت تأملات ديكارت فى اتجاهين : الأول هو تبرير ميتافيزيقى لقدرتنا على الحكم الصحيح، والثانى تفسير الاستعمال السيئ لهذه القدرة، مؤملاً من ذلك، الوصول إلى تحديد الوسائل التى تقينا الوقوع فى الزلل"(٥٠). وغاب عن رؤيتها أن الشك عندما يتعلق موضوعه بتعليق الحكم على ما هو غير يقينى يعد فعلاً مبررًا دائمًا، ويظل كذلك على الرغم من الحقائق والبراهين التى نصل إليها، لكونه هو الأداة التى تحررنا من الوقوع فى الخطأ. وتتمسك روديس لويس بالكوجيتو مع كل دارسى ديكارت، فالوضوح التام باعتباره أهم ما يميز المبادئ العقلية - كما ترى - هو ما يوقف عملية الشك " إن قول ديكارت (أنا أفكر) يحمل الصفة الأولى للمبادئ العقلية وهى الوضوح التام الذى يجعل العقل عاجزًا عن التشكك فيها عندما ينصرف إلى تأملها"(٥١). ومع ذلك تشعر الباحثة بأن هناك وجهًا آخر للمسألة عندما تتساءل عمَّا إذا كانت هناك صفة ثانية، أو هذا الوجه الآخر الذى يجعل من الشك محورًا للارتكاز فى هذا الفكر، وإذا كان الأمر كذلك، فهذا من شأنه أن يجعل من الفكر الديكارتى فكرًا منغلقًا على ذاته؛ إذ تنحصر رؤيتها هنا فيما هو إيجابى، أى فيما يؤدى إليه الشك (اليقين)، وليس فى الحضور الدائم للشك الذى تفهمه

على نحو سلبى، إذ لابد له أن ينقشع تمامًا عند الوصول إلى الحقيقة اليقينية التى لا يمكن الارتداد بعدها إلى حالة الشك، وإلا سيكون الفكر الديكارتى - كما أسلفنا - فكرًا منغلقًا على ذاته، ومن هنا يأتى تساؤلها : " هل تكون لهذا القول الصفة الثانية وهى " أن معرفة الأمور الباقية متوقفة عليها، بحيث يمكن أن نعرفها بمعزل عن غيرها ولا يمكن أن نعرف غيرها بمعزل عنها؛ أو أن تكون ميزة التفكير الذى لا يمكن إنكاره أنه مقفل على ذاته"(٥٢).

ويشغل هذا التساؤل الأخير أحد أبرز المتخصصين المعاصرين فى الفكر الديكارتى، ألا وهو جان مارى بيساد **J.M Beyssade** الذى أعاد صياغة السؤال ذاته على وجهيه المحتملين، فتساءل أولاً عمًا إذا كان ثمَّ إمكان لوجود "عقلانية دوغمائية، تغلق العقل على نفسه وتتبعه حتى إنها تعصف بكل ما ليس هو ذاتها"(٥٣).

وبالمقابل ثانيًا عما إذا كان ثمَّ إمكان لوجود "عقلانية نقدية، ينفتح العقل فيها على ما ليس نفسه متقبلاً أن يتحول ضد أسلحته نفسها"(٥٤)، ويحدد ذلك الانفتاح فى قبول العقل، والنزعات العقلية " أن تُخضع ذاتها للشك، وربما من هنا، عندما تقوم بتعريف ذاتها بذاتها باعتبارها القدرة على النقد الذاتى"(٥٥)، ويحاول باحثنا الدفاع عن الوجه الثانى من تساؤله أو قراءته الثانية التى تفسر - كما يبدو له - الفائدة التى ما زال يجنيها عصرنا، ليس رغمًا عن أزمة العقلانية، بل بسبب هذه الأزمة؛ لذا يقترح العودة إلى أهم عمل أنجزه تمامًا ديكارت، وهو ما يحصره

فى "تأمـــلات فى الفلســـفـــة الأولى"، حـــيث ذات المعـــرفـــة sujet de connaissance ، والأنا le moi، والأنا (الإنية) l'ego (وهو ما نطلق عليه الكوجيتو، وأنا الكوجيتو l'ego de cogito الذى اكتشفه ديكارت لتوه فى وجـوده son existance (je suis, j'existe) وفى وجـوده بـاعـتـبـاره عـقـلاً Raison (je suis une chose qui pense, c'est à dire une raison) فيـتـحـول الشك ضـد نفسـه وضـد العـقـل، وهـو مـا يراه المعـبـر الذى يؤدى إلى التأمل الثالث.

عـقـلانيـة ديكارت إذن - كمـا يـفـهـمـهـا بيسـاد - ليست عـقـلانيـة كـالعـقـلانيـات الأخـرى، ولدى بيسـاد اقـتـنـاع بأن مـا يقـوله سـيـفـاجئ الكثـيـرين، وذلك ربما لاقـتـنـاعـه بأن أغلب المتـخـصـصـين فى الدراسـات الديكارتيـة وضـعوا الكوجيتو فى قلب النسق الديكارتى ، ولم يلتفتوا إلا مـا ندر إلى "الشك". يرى بيسـاد أنه على عكس شكل مـا من العقـلانيـة، فإن عمل العقل يمر لدى ديكارت عن طريق نقده للعقل، وللأنا de l'ego وللأنا باعتباره عقلاً، وذلك عن طريق وضع مبدئه الأول محل شك، وهنا بشكل من التحديد يؤكد بيساد أنه لا يهتم بالمبدأ الآخر الذى سنصل إليه؛ لأن مـا يهمـه الحركة التى تعمل على خروج المبدأ الأول، وإذا وصلنا إلى الإله الصـادق فى التأملين: الثـالث والخامس، فإن هذا ما لا يـهـمـه؛ لأن المهم - من وجهة نظره - هو أن أنا الكوجيتو l'ego de cogito والوجود sum للأنا de l'ego لم يعد يـعتبـرهـمـا عقـــلاً ولا شـيئًا مفكرًا res cogitans . إذ يرى أن المبدأ الأول توقف هنا عن أن يكون الأنا l'ego ، كمـا أنهت العقلانية Rationalité أيضًا هذا الأنا l'ego[٥٦].

ولكى يوضح باحثنا وجهة نظره هذه التى تسلط الضوء على الشك الديكارتى وتجعله يعصف بالكوجيتو وينزله من مرتبته لكى يحتل الشك مكانته فى قلب النسق الديكارتى، يعود بنا إلى – ما يسميه – "ثلاث لحظات" وهى لحظات أساسية فى ديناميات الانتقال التى تتم عبر تطور التأملات الديكارتية فى حركتها المندفعة إلى الأمام.

اللحظة الأولى : يلفت باحثنا الانتباه إلى أن الانتقال أو بالأحرى العبور يتم من مبدأ أول تم اكتسابه، إلى مبدأ أول آخر سيكشف ربما عن نظام المبادئ، إلا أنه لم يُكتسب بعد. وأن يقين وجودى نفسه باعتباره شيئًا يفكر ويعقل (وهو ما نطلق عليه باستمرار وبشكل عرفى الكوجيتو) قد اكتُسب مُذ التأمل الثانى، ويرى أن يقين الله (وجوده وصدقه) يظل فى حاجة إلى الاكتساب حتى نهاية النص، إلا أنه يستدرك بأننا تعلمنا أنه من الضرورى أن نكتسبه، ويرى أن اكتسابه يتم بالفعل عقب التأمل الثالث، ويتم مجددًا فى التأمل الخامس. ويتساءل بيساد عن الكيفية التى يتم بها الانتقال أو العبور، رافضًا على الإطلاق أن يكون ذلك قد تم عبر صفاء الاستنباط لكن " بفضل اضطراب وحركة دوامة تأملية. الانتقال من مبدأ أولى إلى آخر، من الأنا l'ego النهائى إلى اللانهائى الإلهى باعتباره مبدأ أوليًا لا متناهيًا، يتم هنا الانتقال عن طريق لحظة ما لعدم اليقين، إلى يقين يتم الوصول إليه مزعزعًا، منقوصًا، كئيبًا، أى فى ظل اضطراب، ويأس، وتخلٍ ربانى (عن عباده) وقلق"(٥٧). ويتصور الباحث أنه من الطبيعى ألا يرتاح ديكارت لأى من هذه الكلمات، مفترضًا أن

الكلمة المناسبة لديكارت، وهى أقل دراماتيكية، ستكون أيضًا سلبية وهى كلمة " الشك "، وهو يساويها بكلمة **fluctuation animi** التى يستخدمها اسبينوزا والتى تعنى تأرجح النفس أو اهتزازها أو ارتجاجها **balancement ou ballotement de l'âme** . ويستخلص بيساد من هنا أن الانتقال الذى يتم بداية من المبدأ الأول، لا يتم على أرضيـة آمنة، أو بداية من يقين ثابت ذى امتداد أو اتساع. فالانتقال – كما يراه – يتم عبر انتكاس **recrudescence** (معاودة المرض) للشك، وإطاحة بالأنا **l'ego** ؛ ذلك لأنه اعتبر أن الشك مرض ادعت الفلسفة الديكارتية بأنها تعلمنا معالجته، ولهذا اعتقدت الأنا **l'ego** بأنها شفيت بشكل نهائى بداية من التأمل الثانى. وهو يمثل هذا الانتكاس للشك الميتافيزيقى عقب الكوجيتو، وبين الكوجيتو والله – وكأنه (الشك) يُسن على يقين الكوجيتو الذى كان قد أفلت منه فى التأملات السابقة. ويتحول هذا الشك المسنون فى هذه الحالة ضد الكوجيتو من جهة، وضد عقله النهائى من جهة أخرى. وليشرح دينامية الانتقال فى أولى اللحظات الثلاث، يرى الانتقال فى اللحظة الأولى لا يسير من الكوجيتو إلى الله (ليس بعد)، بل يسير من الكوجيتو (أى الحقيقة المحمولة على الأنا **l'ego** باعتباره شيئًا مفكرًا **res cogitans**) إلى حقيقة ثانية، لم تعد تحمل على **une res** شىء، ومن الناحية الاسمية لا تخص وجود هذا الشىء اللا متناهى والكامل الذى يتجلى فى الله. ولهذا يعتبر الانتقال هنا معيارًا لقاعدة ما، هى "القاعدة العامة" التى تعلن عن معيار صورى يتمثل فى "كل ما أدركه بوضوح شديد وتميز يعتبر حقيقيًا"، معتبرًا أن انتقاله هنا ليس انتقالاً من شىء **res**

إلى شىء آخر **res** ، بل انتقال من شىء **res** إلى قاعدة ما **une regula** ، وهذه القاعدة هى قاعدة العقلانية الحديثة نفسها، وفى صيغتها الأكثر دقة(٥٨).

اللحظة الثانية : تنفتح اللحظة الثانية لدى باحثنا عن طريق انبثاق مرة أخرى للشك، فالاعتقاد بالشفاء هو اعتقاد بإمكان وضع الكوجيتو والقاعدة العامة فى الوقت نفسه، لكن ما يفرض نفسه فى المقابل هو عودة الشك فى شكل أكثر حدة، فمن خلال الأمثلة المضادة يقوم بضرب القاعدة العامة المتأثرة مُذ البداية بفعل عقل الشك الأكثر راديكالية. ويؤكد بيساد على حقيقة معرفتنا أن القاعدة العامة والكوجيتو (أى الحقائق المفردة التى تحمل على هذا الشىء الموجود الذى هو الأنا **l'ego** باعتباره شيئًا مفكرًا **res cogitans**) – حتمًا متضامان، ليلفت انتباهنا إلى الكيفية التى يعود بها الشك من جديد، ليبرز أن النفى **verumtamen** الذى نقابله دائمًا، هو نفسه الذى قابلناه من قبل فى التأمل الأول، والكوجيتو موضوع حتى قبل الذات المتأملة، فمُذ البداية ثمة الفرضية الميتافيزيقية لإله خالق قادر وربما يخطئنى، وهو ما يعتبره باحثنا "أكثر الأسباب تطرفًا فى الشك"، باعتبار أن هذا السبب قد تم إدخاله فى الوقت الذى كنا قد اعتقدنا فيه بأننا ربحنا اليقين الثابت، حيث يرى بيساد أنه بخروج ديكارت من الشك فى المحسوسات، اعتقد بأنه قد توصل مع الأشياء الرياضية إلى أرض اليقين المطلق، وهو نفسه ما استخدمه باعتباره قاعدة أو مبدأ لا يمكن تجاوزه فى القواعد **les regulae** .

وذلك نفسه ما كتبه ديكارت عن الحقائق البديهية مثل ٢ + ٣ = ٥، وما يقوم به الشيطان الماكر أو الإله المخادع. من هنا يرى باحثنا أنه سيكون علينا فى هذه الحالة أن نضع القاعدة العامة موضع التساؤل، تلك القاعدة العامة المتمثلة فى اليقين الثابت للكوجيتو التى اعتقدنا فيما سبق أننا قد توصلنا إليها، بواسطة الأمثلة المضادة مثل بداهة المحسوسات وغيرها ..[٥٩].

اللحظة الثالثة : وهو يرى فى اللحظة الثالثة أيضًا أنها تقود وباستعجال إلى الشك فى القاعدة العامة التى يعتبرها بأنها ليست شيئًا ميتافيزيقيًا؛ أى "من الأنا l'ego النهائى المعروف يقينا بالتأمل الثانى، ولكن يقينًا تم التوصل إليه أولاً مصابًا فى بداية التأمل الثالث، إلى الله الذى سيجب أن يكون معروفًا بيقين أكبر وأيضًا لنستطيع تحرير القاعدة العامة فى الوقت نفسه"[٦٠]. هذه القاعدة العامة التى تتجلى لديه فى الكوجيتو والحقائق، ومن ثم يصبح تحريرها من ذلك الشك الميتافيزيقى الذى أصابها. هنا يرى بيساد أن السبب الأكبر للشك سنجده فى اللحظة الحاضرة فى آن لحظى مضطرب، وليس فى الماضى ولا فى الذاكرة، وهو ما يعنى لديه أن العقل يقوم بنقد نفسه وحتى بنقد ذاتى. ويلفت باحثنا الانتباه إلى إمكان أن يكون هذا الموضوع غير واضح فى الطبعة الفرنسية للتأملات، بينما يراه شديد الوضوح فى الطبعة اللاتينية[٦١]. ولشرح هذا الأمر يسوق بيساد فكرة أنه " إذا ما كان الله مخادعًا فما هو واضح ومتميز يمكن ألا يكون حقيقيًا؛ لأنه مادام أن فكرة الله لم

تتضح لى بعد فستبقى هذه الأشياء محتفظة بقدر من الغموض؛ فالصلة تنقطع هنا بين الوضوح الأصلى **intrinsèque** للفكرة، وعلاقته الخارجية **extrinsèque** لحقيقة الشيء"[٦٢].

ويستخلص جان مارى بيساد من افتراضه السابق الذى يستند إلى لحظاته الثلاث، أن العقلانية الديكارتية تبدو له نقدية وليست دوغمائية، مستندًا فى ذلك إلى أن الأنا **l'ego** لديه لا تنغلق على ذاتها، ولا ينغلق عقله النهائى على بديهياته التى تكشف عن القاعدة العامة، وأنه انطلاقًا من القاعدة الصورية للعقلانية ينبغى البحث عن كائن **etant** ، موجود يضمنها، وهذا الشىء لن يعرف وجود أى محدودية للأنا **moi** وعقلها[٦٣]، كما يرى أن المبدأ الآخر لدى ديكارت سيصبح هو الله اللامتناهى والتام، ويلاحظ أن ميتافيزيقا الله عند ديكارت لها أسس مشتركة مع العلوم الدينية التقليدية، ومع ذلك يجد باحثنا أننا حتى لو كنا نرفض أن يكون العقل الطبيعى المحض قادرًا دون أية معونة للبرهنة على وجود الله فى الوقت ذاته، وحتى إذا ما كنا نبحث عن نبع آخر لنورنا الطبيعى، فإن ضرورة انفتاح عقلنا على شىء آخر مختلف عنه يبقى مكتسبًا، ويُكتسب عن طريق **العقل**[٦٤].

ويؤكد باحثنا أنه عندما تنتهى الفلسفة الأولى لديكارت فإن ثلاثة مبادئ ترتبط فى وضعيتها **positivité** يحددها على الوجه التالى : أولاً الله اللانهائى والتام، وثانيًا عقلى **mon esprit** أو فهمى **mon entendement** القادر على المعرفة، وثالثًا القاعدة العامة التى يمتد

تشريعها إلى كل معارفنا، لكن هذه الفلسفة يراها تنمحى، مخلفة أن يتبع كل من المبادئ السابقة مصيره الخاص(٦٥). إلا أن بيساد يرصد خلف تلك الديكارتية الوضعية ومبادئها الثلاثة الأولى سالفة الذكر وجود الخبرة الديكارتية للنفى négativité التى يفترض امتلاكها شيئًا ما أكثر راديكالية؛ لأنه بالعودة إلى أعمال ديكارت يلاحظ أننا لسنا فى اليقين المستمر لاستنباط ما يفيد المبادئ الأولى، ومن هنا يقرر أنه ليس لدينا سوى مبدأ واحد يحصره فى دوامـة الشك التى نظمت تنوعها(٦٦).

ولكى يؤكد ما توصل إليه، يلفت الباحث انتباهنا إلى أن ديكارت لم يذكر كلمة الميتافيزيقا فى كتابه "التأملات الميتافيزيقية" إلا نادرًا جدًا، وهو ما لم يعزه إلى الصدفة، بل كان توجها مقصودًا منه. ويتساءل إذا ما يمكن أن نعتبر الشك هو المبدأ الرابع والنهائى، وهو ما توصل إليه بالفعل؛ لأن الشك – كما يراه – يشكّل فى نفيه sa négativité النقطة الحقيقية الثابتة للنظام، انطلاقًا من مبدئه الأكثر خصوصية والأكثر أولية، بما لا يمكن اختزاله. ويعود بيساد لكى يؤكد توجهه هذا إلى محاورة ديكارت، ليرى أنه يكفى قراءة ذلك فى هذه المحاورة المسماة : "البحث عن الحقيقة"؛ "لأنه بداية من هذا الشك المطلق universel ، ومثله مثل بداية من نقطة ثابتة وغير متحركة، أقترح على نفسى أن أقوم بتحويل معرفة الله، ومعرفتكم، ومعرفة كل الأشياء التى توجـد فى العالم"(٦٧)، من هنا يصبح مبدأ الشك – كما يراه باحثنا – وهو المبدأ الأول، هو هذه النقطة الثابتة التى أثبت من خلالها وجودى، ووجود الله، بل وجود الحقيقة وكل ما يتصل بها، خاصة أننا لم نستطع الانتقال من

مبدأ إلى آخر إلا بمعونته وفى معيته، "أشك، إذن، أنا موجود. أشك، إذن، الله موجود. أشك، إذن، لدى فكرة عن الحقيقة، عن العالم وعلاقتهما، من هنا سأستطيع بعد ذلك معرفة كل الأشياء الأخرى. كل واحدة من المبادئ الثلاثة الوضعية للنظام تختزل هكذا عن طريق تحوير للمبدأ الأول، السلبى، ألا وهو الشك. ونحن رأينا توًا كيف أنه داخل وساطة الشك، الذى كان يمثل المعبر نفسه من مبدأ إلى المبدأ الآخر"[68].

من هنا تتجذر المبادئ الأولى للفلسفة داخل النفى الذى تستخدمه الذات الفاعلة والتى لا يمكن أن تستمر فاعليتها سوى بالشك. هكذا استطاع جان مارى بأطروحته هذه أن يزعزع الفكرة السائدة عن الفلسفة الديكارتية، بزحزحته الكوجيتو عن عرشه فى قلب النسق الديكارتى؛ مما يدفعنا جديًا إلى إعادة النظر فى مرتبة الشك لدى ديكارت، وهو ما لم يتأت سوى بالدراسة المتأنية لذلك النص الديكارتى غير المعروف (المحاورة) "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الديكارتى".

والسؤال الذى يفرض نفسه : هل عرفت الدراسات الديكارتية العربية هذا النقاش الذى – كما رأينا – قد ثار مبكرًا جدًا، وذلك قبل أن يقوم بتجذيره جان مارى بيساد؟

الشك الديكارتى فى الدراسات الديكارتية العربية :

فى الحقيقة لم يكن أساتذتنا بمعزل عن هذه المسألة على الإطلاق؛ حيث دارت بينهم نقاشات على صفحات المجلات والكتب[69]، فكان

د. عثمان أمين يتصور أن "الشك فعل من أفعال الإرادة، فهو ينصب على" الأحكام" لا على "التصورات" و "الأفكار"(٧٠). من هنا فهم الشك الديكارتى باعتباره شكًا منهجيًا، نافيًا أن يكون شكًا وجوديًا، وبالتالى حصره فى نطاق العقل، واستبعد أن يكون متصلاً بالعقيدة؛ إذ إن الشك الديكارتى – كما فهمه أستاذنا الدكتور عثمان أمين – " هو محاولة منظمة للوصول إلى اليقين العقلى، وليس تجربة من تجارب الوجود قد فرضت على الفيلسوف فرضًا، ومثل ذلك الشك أدنى إلى أن يكون نشاطًا روحيًا مرتبًا، وقوة دافعة إلى الفكر .."(٧١).

ويتناقض هذا الفهم مع ما توصل إليه الأستاذ يوسف كرم الذى رفض أن يكون الشك لدى ديكارت فرضًا منهجيًا؛ حيث اعتبره شكًا حقيقيًا؛ إذ إن حالة الشك الكلية لدى ديكارت تمنع " أن يكون (شكه) صوريًا جزئيًا"(٧٢)، وهذا ما يتطلبه الأمر ليكون شكه منهجيًا. ويعزو الأستاذ كرم استعانة ديكارت فى شكه الإرادى بالروح الخبيث، وتأكيده حالة حقيقية من الشك فى نفسه لإحساسه نفسه "إن مثل هذا الشك الكلى، معارض لطبيعة العقل"(٧٣)، ومن هنا كان استخلاصه لحقيقة أن ديكارت "يشك فى العقل ذاته؛ فشكه كلى حقيقى يمتنع الخروج منه"(٧٤). أكثر من ذلك، فقد فهم الأستاذ كرم الشك فهمًا أقرب إلى ما توصل إليه جان مارى بيساد فيما بعد، وبخاصة فيما اتصل بموضوع الشيطان الماكر (أو بلغته الروح الخادع أو الخبيث)" فإن الروح الخبيث ما يزال ظله مُحلِّقًا فوق أفكارنا مهما تكن جلية متميزة، وإن فاته خداعنا فى

وجود الله، بقى سلطانه كاملاً على موضوعات الفكر، فيمتنع التقدم خطوة واحدة"[٧٥]. وانطلاقًا من هذه الحقيقة - لديه - فالصدق الإلهى لا يستطيع أن يقدم أى نجدة لسبق الروح الخبيث عليه، ويصبح ذلك الصدق هو نفسه محل شك. كما يبرز الأستاذ كرم ما اعتبره البعض دورًا منطقيًا فى هذه الفكرة الديكارتية : فإن العقل والأفكار الواضحة باعتبارها وسائل غير خادعة تمثل أُسسًا للتدليل على الوجود الإلهى، إلا أن هذا الوجود فى الوقت نفسه مطلوب لضمان المعرفة (أى عدم خداع العقل والأفكار الواضحة) وكأن ديكارت هنا - فى رأى الأستاذ يوسف كرم - أراد الوصول إلى اليقين بأى ثمن حتى لو ضحى بالمنطق. لكن على الرغم من فهم أستاذنا هنا لراديكالية الشك الديكارتى وعمقه وامتداده، فإنه لم يستطع أن يستسيغ على الإطلاق فكرة الشك باعتبارها لازمة دائمة للعقل الإنسانى؛ وذلك لاعتقاده السابق بأن الشك الكلى معارض لطبيعة العقل، وهو على عكس ما فهمه بيساد.

وثمة صوت عربى آخر حاول أن يتعمق أيضًا فى هذه المسألة الشائكة، ألا وهو د. نجيب بلدى الذى أولى موضوع الشك لدى ديكارت أهمية خاصة؛ إذ نظر إليه على أنه خطوة ضرورية؛ حيث إن الخبرة التى يكتسبها البشر من خلال الخطأ عبر العصور وإمكانية تكراره بفعل الأحكام التى لا تستند على شىء، تدفعهم إلى الشك فيها وفى مصادرها[٧٦]، ولجدية اهتمامه بالشك الذى أراده ديكارت أن يكون مطلقًا - على حد تعبيره - فقد فهمه على أنه خطة لها جوانبها المتكاملة؛

إذ تعنى خطة الشك لديه "عدم التردد، أى العزم على عدم (اعتبار) هذه الأحكام وعدم الاهتمام بها وبمرتبتها من الخطأ والصواب .."[٧٧]، من هنا يصبح الشك كما فهمه " .. هو العزم على (عدم الالتزام) بالأحكام المذكورة، سواء كانت صادرة عن تعاليم ماضية لم نتبين صحتها أو عن الحس أو عن الخيال " [٧٨]. وخطة الشك بهذا المعنى سيعتبرها د. بلدى "أسلم الخطط إزاء جميع الفروض السابقة"[٧٩]؛ وذلك لأن هذه الخطة ستدفع إلى التعامل مع كل حكم بالحذر المطلوب " كأنه كاذب "؛ مما يجعلنا فى حلٍّ من التزامنا بهذه الأحكام، أى سنعلق أو سنتوقف عن إصدار أى حكم كان. ويستعين د. بلدى بما قاله اليونانيون قديمًا ليدعم أهمية خطة الشك هذه " فهذا الموقف إن لم يكفل للإنسان أى يقين إيجابى فهو يضمنه على الأقل من الوقوع فى الخطأ"[٨٠]. إلا أنه يضيف إلى ذلك مسألة أخرى، وهى ارتباط الشك بالحرية، إذ - كما رأينا - فإن الشك يعنى رفض القبول بالقضايا التى تحتمل الخطأ، ولو بشكل ضئيل، بمعنى " رفض الرضوخ، أى الحرية فى أقوى معانيها، ولذلك كان الشك أقوى سلاح ضد فرض الكائن الماكر؛ لأن الشك علامة على قدرة هى حريتى الشخصية"[٨١]. هذا وإن كان ديكارت قد بلغ بفكرته عن الشيطان الماكر فى تأملاته قمة شكه، فإن الشك الديكارتى المطلق - كما يراه بلدى - "ليس إلا التعبير الفلسفى عن نظرية خلق الحقائق الأبدية (...) (كما أنه) ليس إلا بديلاً لفرض إله قادر على خلق الحقائق

خلقًا، وقادر بالتالى على إعدامها"(٨٢). والشك باعتباره - كما رأينا - تعبيرًا عن الحرية الشخصية، فلن يكون ثمة سلاح آخر أقوى منه يمكن أن يتصدى لفرض الشيطان الماكر.

ومن هنا يستخلص د. بلدى الحقيقة التى خرج بها من دراسته، وهى أن شك ديكارت هو "التأمل الأول فى الفلسفة، وهو طريق الاكتشاف الفلسفى"(٨٣) بالإضافة إلى أنه محاولة من جانب ديكارت للبحث عن نقطة مناسبة يبدأ منها الفيلسوف، ومن ثم فهو "ليس نهاية حركة العقل الفلسفى، بل ليس بدايتها ولا الشروع فيها"(٨٤). من هنا فشك ديكارت كما فهمه د. بلدى ليس هو المرادف لليقين، بل "هو ظهر الحقيقة وخلفها، إن صح القول، وعلى ذلك كان وجهها وجودى أنا الذى أشك، أنا الذى أفكر"(٨٥).

وعلى الرغم من أن المقاربتين الأخيرتين لكل من أ. يوسف كرم، ود. نجيب بلدى قد حاولتا اكتناه أسرار هذا الشك، بل السير معه إلى أقصى الأعماق التى يدفع إليها - فإنهما لم تفكرا على الإطلاق فى إمكان إعادة النظر فى موقع الشك داخل النسق الديكارتى المعروف؛ إذ ظل الكوجيتو لديهما فى القلب من الفلسفة الديكارتية، على الرغم من محاولتيهما الفريدتين، ولاكتشافهما على عكس فهم د. عثمان أمين أن الشك الديكارتى هو شك حقيقى ووجودى وليس مصطنعًا، وليس نشاطًا روحيًا مرتبًا، كما اعتقد زميلهما. وفى اعتقادى أن المقاربات الثلاث ما كان لها أن تسير إلى أبعد مما وصلت إليه فى هذا الأمر؛

حيث غابت عنها هذه المحاورة الفريدة التى استند إليها كل من حاول أن يضع الشك الديكارتى فى موقعه الصحيح، فنظرة سريعة إلى الكتب الثلاثة، وبخاصة إلى مصادرها، لن نجد أى أثر لهذه المحاورة الديكارتية الصغيرة " البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى "، وهى المحاورة التى استندت إليها جنفيف روديس لويس، وجان مارى بيساد فى دراستهما الشك الديكارتى، والتى أظهر فيها ديكارت بشكل حاسم الوظيفة المعرفية للشك؛ باعتباره هو الحاضر المستمر للوصول إلى كل يقين أراد الوصول إليه، ولعل هذه الملاحظة الأخيرة هى ما تعطى لهذا النص الديكارتى (المحاورة) أهمية إضافية إلى جانب ما ذكرناه من قبل حول النص[٨٦].

الخلاصة :

توصلنا فى قراءتنا لديكارت إلى أنه لم يكن مشايعًا لإيمان كنسى حرفى، وما بدا على عكس ذلك كان محاولة منه للهرب من قهر محاكم التفتيش. من هنا جاءت كتاباته سواء تلك التى تكرس الإيمان المسيحى وتؤكده، أو كتاباته ذات الإيحاءات أو الخلفيات الدينية على نحو ما جاءت عليه، كما رأينا أن وضعه فى سياقه التاريخى مسألة حيوية، وهو نفسه ما يبرر صمت ديكارت العلنى عن الدفاع عن جاليليو، وموقفه الشخصى من المسألة عينها، والذى بثه فى الخفاء لدى أصدقائه المقربين، أو ما شاب أيضًا سلوكه وعاداته فى الحرص والتخفى والبحث عن المشروعية الدينية لتسويغ أفكاره.

والنص الذى نحن بصدده والذى كتبه ديكارت على شكل محاورة يبرهن على قراءتنا موقع الدين فى نسق الفلسفة الديكارتية، ولعل هذا ما سمح بشكل كبير أن يحتل الشك قيمة كبرى فى هذه الفلسفة، إذ لو حدث أن التزم ديكارت حرفيًا بالدين، لكان من الممكن أن يعرقل هذا الالتزام مساحة الشك وموقعه فى قلب النسق الديكارتى.

يبدأ الشك فى المحاورة حين يضع بوليندر الحواس باعتبار أنها بالنسبة إليه " أكثر وأشد يقينية "، ويقدم إيدوكس مرافعته بتوضيح أن خوف صديقيه يكمن فى عدم تصدع الأسس، الذى سيعنى أن ينطلق شكهما فى كل شىء، وهو هدف يسعى إليه إيدوكس عندما ينجح فى هدم علم إبيستمون، وذلك حين يضع يده على موضع الشك فى هذا العلم المدرسى الذى يتمسك به محدثه، وهى حالة يخفف إيدوكس من حدتها ونتائجها إذا تعود ممارسها أن يقوم بها. إنها حالة من الشك الكونى (المطلق) عندما يتحول هذا الشك إلى نقطة ثابتة تُشتق منها كل المعارف، وهو ما يعلنه إيدوكس صراحة عندما يقرر "أنه من خلال هذا الشك المطلق، باعتباره نقطة ثابتة وغير متحركة، أريد أن أستنبط معرفة الله، ومعرفتك، وأخيراً معرفة كل الأشياء الموجودة فى الطبيعة"(٨٧). وإيدوكس الذى يقدر بشكل كبير" الشك" باعتباره النقطة الثابتة وغير المتحركة التى يعتمد عليها فى بحثه عن الحقيقة، هذه الحقيقة هى ما يقدرها للتعليم المدرسى الذى تلقاه فى صباه؛ إذ بمعونته "تعرفت الشك

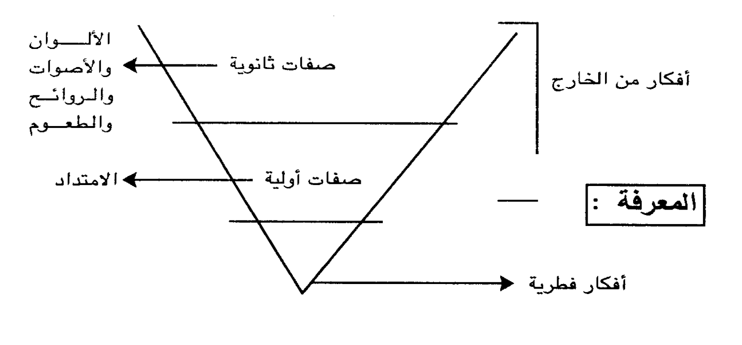
فى كل ما تعلمته"(٨٨)، وهو لهذا يدين بالشكر لمعلميه الذين قاموا بتعليمه حقيقة "أن كل شىء مشكوك فيه حتى إن كان متطابقًا مع العقل .."(٨٩)، وهو نفسه ما جعل ديكارت أكثر ولعًا بالحقيقة.

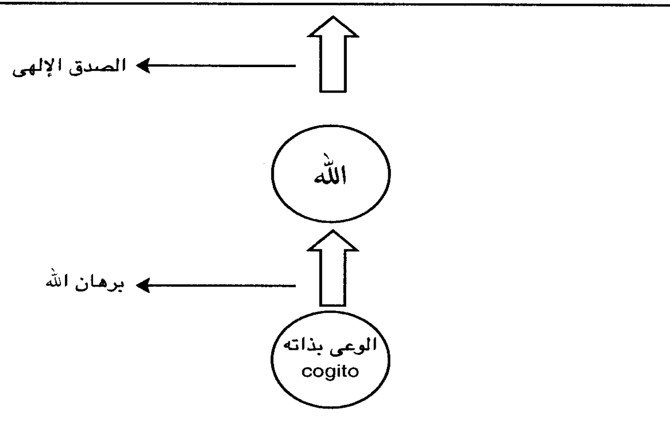
من هنا فأهم ما يضع إيدوكس يده عليه هو هذا "الشك" مفتاح الحقيقة والمعارف؛ لذا ينصرف سؤاله لبوليندر عن هذه النقطة المهمة: "قل لى إذن : من أنت شخصيًا، باعتبارك تشك. لأن هذه هى النقطة الوحيدة؛ بحيث إنك لن تستطيع معرفة أكيدة بأى شىء آخر .."(٩٠). وهكذا يصبح الشك مرتبطًا بالوجود الإنسانى ذاته، حينما يصل إيدوكس ببوليندر إلى حقيقة ربط الوجود بالشك بطريقة لا ينفصم عراها "أنا موجود ...، وأعرف أنى موجود، وأعرف ذلك لأنى أشك .."(٩١). وهو ما يجعل إيدوكس يقر بحقيقة أن الاستخدام المناسب للشك هو طريق استنباط المعارف شديدة اليقينية والنفع(٩٢).

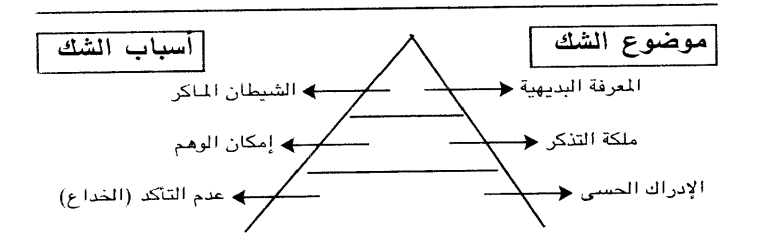
وعندما يرى إبيستمون أن الاعتماد على الشك فى إثبات الوجود هو أساس شديد الغموض، بل ينقصه اليقين بصورة كبيرة؛ حيث كان من الواجب - حسبما يرى - أن يعلم إيدوكس لبوليندر أولاً "ما معنى الشك" ؟ يتصدى إيدوكس لوجهة النظر هذه، ومع اتفاقه مع إبيستمون بضرورة معرفة "معنى الشك"، إلا أنه يرى أن اختبار الأشياء ومعاناتها أفضل من تعريف ما هو شديد البساطة والوضوح؛ فنعمد بتعريفه إلى جعله أكثر غموضًا، ومن هنا "لمعرفة ما معنى الشك والفكر، سيكفى أن

نشك ونفكر"[٩٣]، أكثر مما يمكن أن نقرأه فى التعريفات الدقيقة. وهذه الفكرة هى ما اغتبط بوليندر عندما توصل إليها، وظل يردد ما تعلمه من إيدوكس، وشهد لصديقيه بقوله: "لم أشك أبدًا فيما يعنيه الشك، وأنى لم أبدأ أيضًا فى معرفته، أو بالأحرى فى التفكير فيه، إلا عندما أراد إبيستمون أن يضعه موضع الشك"[٩٤]. هكذا يظهر أيضًا ذلك الارتباط بين الشك ومعرفة الذات أو وجودها لدى بوليندر "بدأت أعرف نفسى فى الوقت الذى بدأت فيه الشك .."[٩٥]. وهو ما دفع إبيستمون إلى أن يصف منهج إيدوكس وبوليندر بأنه المنهج "الذى يشك فى كل شىء .."[٩٦]. ولأن إبيستمون قد لاحظ هذه العودة المستمرة لإيدوكس إلى مبدئه الأول الذى بدأ به، ألا وهو الشك، وهو مفتاح الوصول إلى المعارف لديه، نجده يؤكد هذه العودة عندما يشبه إيدوكس بهؤلاء "القافزين الذين يقعون دائمًا على أقدامهم؛ إذ تعود دائمًا إلى مبدئك؛ وإذا ما مكثت على هذه الحال فلن تستطيع لا الذهاب بعيدًا ولا بسرعة"[٩٧].

نستطيع القول إن محاورتنا هذه قد استطاعت تعديل التصور الكلاسيكى للفلسفة الديكارتية الذى تناقلناه دومًا عنها، وهو أن "الكوجيتو" يشكل محور ارتكاز هذه الفلسفة؛ وذلك بتدعيم افتراض أن "الشك" هو ما يشكل هذا المحور فى قلب النسق الفلسفى الديكارتى، ومن هنا يمكن تخيل النسق الديكارتى الكلاسيكى الذى يمثل الكوجيتو محوره الرئيس، وهو على النحو التالى[٩٨] :


الألــــوان
والأصوات
والـروائــح
والطعــوم
صفات ثانوية
أفكار من الخارج
الامتداد
صفات أولية
المعرفة :
أفكار فطرية


الصدق الإلهى
الله
برهان الله
الوعى بذاته
cogito



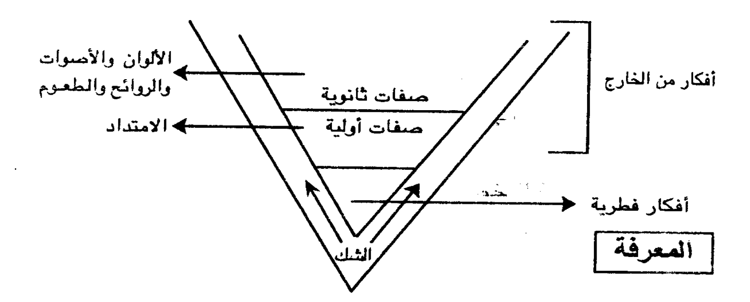
حيث تبدأ موضوعات الشك انطلاقًا من الإدراك الحسى؛ وذلك بسبب عدم التأكد نتيجة لأن الحواس تخدعنا أحيانًا؛ لذا لا يمكن الركون إليها، مرورًا بالشك فى ملكة التذكر؛ لإمكان الوهم والخلط بين الأفكار فى اليقظة والنوم، وصولاً إلى الشك فى المعرفة البديهية، واستدلال العقل. ومهما استمر هذا الشك إلا أنه لن يستطيع أن يمتد إلى كونى أشك، وكونى أفكر، وبالتالى إلى كونى موجودًا مفكرًا، أى إلى وعيى بذاتى (الكوجيتو)، وهى فكرة واضحة ومتميزة، ومن ثم فهى صادقة. لكن تظل معرفتى هذه، مهددة بعدم استطاعتى التحقق من شىء، ومن هنا لدى فكرة عن موجود كامل، وبطبيعة الحال لست أنا مصدرها، فهى فكرة، إذن، ألقاها فى نفسى الله الذى لا يمكن ضمان المعرفة إلا بإثبات وجوده وصدقه. غير أن هذه المرحلة تنقسم إذن، إلى :

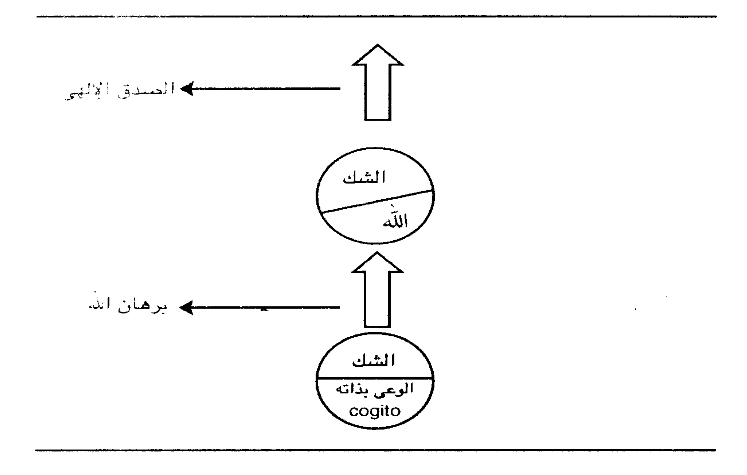
(أ) الشك المطلق.

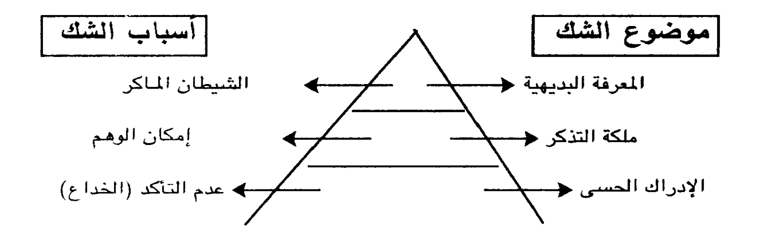
(ب) وضوح الفكر.

(ج) الضمان الإلهى.

كما أن الماديات موجودة باعتبارها أشياء ممكنة، والله الذى أثبتنا وجوده توًا قادر على إحداثها، ومن ثم إحساسى الطبيعى بوجود أشياء جسمية هو إحساس صادر عن الله، وما دام الله ليس خادعًا، إذن نستدعى كل أسباب الشك السابقة، وسيتأكد وجود الأشياء المادية باعتبارها امتدادًا، وسيتأكد وجود الأفكار الفطرية، والأفكار التى تأتى من الخارج. هذا التصور الكلاسيكى السابق يمكن أن نتصوره على شكل آخر، على هدى من المحاورة التى قمنا بدراستها والتعليق عليها، وعليه يصير الشك هو محوره الرئيس ويصبح على النحو التالى :




الصدق الإلهي
الشك
الله
برهان الله
الشك
الوعى بذاته
cogito


أسباب الشك
موضوع الشك
الشيطان الماكر
المعرفة البديهية
إمكان الوهم
ملكة التذكر
عدم التأكد (الخداع)
الإدراك الحسى

فى هذا الشكل المعدل لن تتغير موضوعات الشك ولا أسبابه، بينما الوصول إلى الوعى بالذات (الكوجيتو) لن يكون كوجيتو محضًا، بل سيتخلله الشك الذى سيظل حيًا وحيويًا، وهو السبب فى أن تظل المعرفة مهددة وغير نهائية، وسيدفع الشك إلى إثبات وجود الله وصدقه. وستنقسم هذه المرحلة إلى :

(أ) الشك المطلق.

(ب) وضوح الفكر مع الإبقاء على الشك.

(ج) الضمان الإلهى مع الإبقاء على الشك.

حتى المعرفة لن تتأتى إلا بهذه الدينامية الحية لفعل الشك الذى يظل كالجذوة المتقدة دائمًا؛ مما يدفع إلى اليقين بعملية شك دائمة، لا تصل أبدًا إلى يقين نهائى، فمن رحم الشك ينبثق اليقين، لكن يظل رحم الشك على الدوام شرطًا حتى نتحصل على اليقين الذى لا ينتهى أبدًا من حياتنا .. وفى الختام نجد أنفسنا نكرر ما قاله أحد الباحثين : " ألا ينبغى أن نعترف أن الفكر الديكارتى كان ولا يزال أكثر تعقيدًا وأكثر غنى مما أعطاه عنه كل المفسرين ؟ ألا ينبغى البحث عن فهم أكثر تكاملاً له ؟"[٩٩].

هوامش الدراسة

(١) انظر د. مهدى فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه : نظرة تحليلية ونقدية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦، صـ ٧٨ .

(٢) راجع : د. عثمان أمين، ديكارت : أعلام الفلسفة، ط ٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، صـ ٤٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ديكارت، مبادىء الفلسفة : سلسلة النصوص الفلسفية ٦ ، ترجمة د. عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، صـ ١٠٧، وسنعتمد على هذه الطبعة فى كل إحالاتنا لكتاب مبادئ الفلسفة .

(٥) ديكارت، التأملات فى الفلسفة الأولى : نفائس الفلسفة الغربية ٣ ، ترجمة د. عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٤، صـ ٣٩، وسنعتمد على هذه الطبعة فى كل إحالاتنا لكتاب التأملات.

(٦) المرجع السابق، صـ ٤١ .

(٧) M. Merleau - Ponty, Eloge de la Philosophie et autres essais, Coll., "Folio - essais", Gallimard, Paris, 1989.

(٨) Ibid.

(٩) lettre à Mersenne, Mars, 1641.

(١٠) التشديد من عندنا .

(١١) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p.409.

(١٢) ibid., p. 406.

(١٣) ibid., p. 401.

(١٤) المعروف أن النص كان قد كتب فى الأصل بالفرنسية (حسبما كتب مؤرخ ديكارت الشهير بابيه Baillet) وكان الفيلسوف الألمانى ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) قد اشترى النص فى عام ١٦٧٠ مع نص القواعد les Regulae . وكان ليبنتز قد ذكر بأنه يحتفظ ببقية النص فى مكان آخر (انظر Genviève Rodis - Louis, le développement , op.cit., p.205 (الهامش) .

إلا أنى أرى أن ما كان يقصده ليبنتز هو جزء من النص غير المكتمل، وأن النص الذى وصلنا هو الجزء الذى اشتراه ليبنتز، مضافًا إليه جزء آخر من النص عثر عليه سير J. Sire فى مدينة هانوفر، والنص الذى ننشره هنا مترجمًا هو جماع النصين، ويظل غير مكتمل.

(١٥) ورد فى طبعة سنة ١٧٠١ : " إن بقية النص ناقصة، بعد أن كان ديكارت قد انشغل فى تأليف الباليه فى ديسمبر، ومسرحية غير مكتملة، كان يجب على ديكارت أن يكمل تحرير المحاورة على الأقل أثناء غياب الملكة لمدة أسبوعين فى إبسالا ولا نعرف لماذا توقف ؟ "انظر Genviève Rodis - Louis, le développement, op.cit., p.212.

(١٦) Denis Huisman, Dictionnaire des Philosophes, P.U.F., 2 ème éd., 1993 p.782.

(١٧) انظر Encyclopedie Philosophiques Universelle, Les Oeuvres Philosophiques, Dictionnaire 1, P.U.F., 1992, P.1085.

(١٨) د. مصطفى غالب، ديكارت، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٩، صـ ٤٢ - ٤٣ .

(١٩) المرجع السابق، صـ ٢٥ .

(٢٠) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p. 385.

(٢١) نقلاً عن : د. مصطفى غالب، ديكارت، مرجع سبق ذكره، صـ ٢٧ .

(٢٢) In : Pierre Mesnard, Descartes, Ed. Seghers, Paris, 1966, Coll. "Philosophes de Tous Les Temps", p.118.

(٢٣) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p. 385.

(٢٤) Denis Huisman, Dictionnaire, op. Cit., p. 782

(٢٥) Groupe d'Auteurs, Descartes et le Cartésianisme hollondais, Etudes et Documents, P.U.F. , Ed. Francaise d'Amsterdam, Paris, Amesterdame, 1950, p.73.

(٢٦) ibid., p. 74.

(٢٧) ibid., p. 74.

(٢٨) ibid., p. 81.

(٢٩) Encyclopèdie Philosophiques Universelle, Les Oeuvres Philo., op. Cit., p.1085.

انظر أيضًا فرضية الفيلسوف الألمانى كاسيرر الذى ارتأى أن الكتاب كان موجهًا إلى كرستين ملكة السويد، وذلك فى :

Genviève Rodis - Louis, le développement , op.cit., p.204.

(٣٠) جنفيف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، ترجمة: عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت / باريس ط٤، ١٩٨٨، صـ ٢٦، (الهامش). وانظر أيضا :

Louis, le développement , op.cit., p.203 Genviève Rodis.

(٣١) نقلاً عن جنفيف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، مرجع سبق ذكره، صـ ١٩، ٢٠ .

(٣٢) المرجع السابق، صـ ١٩ .

(٣٣) المرجع السابق، صـ ٢٠ .

(٣٤) التأملات، ٣ نقلاً عن المرجع السابق، صـ ٦٥ .

(٣٥) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p. 385.

(٣٦) ibid., p. 386.

(٣٧) ibid.,

(٣٨) ibid., p.388.

(٣٩) جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة: الأب مارون خورى، منشورات عويدات، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، صـ ١٢ .

(٤٠) المرجع السابق.

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) المرجع السابق.

(٤٤) جنفيف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، ترجمة : عبده الحلو، مرجع سابق، صـ ٢٦ .

(٤٥) المرجع السابق.

(٤٦) المرجع السابق، الموضع ذاته، ويمكن مراجعة ترجمتنا للأصل لنرى موضع التحوير والتلخيص، ويقع النص فى الأصل الفرنسى فى:

Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p. 396, 397.

(٤٧) جنفيف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، مرجع سابق، صـ ٣٨ – ٣٩ .

(٤٨) المرجع السابق، صـ ٦٥ .

(٤٩) المرجع السابق، صـ ٥٨ – ٥٩ .

(٥٠) المرجع السابق، صـ ٦٧ .

(٥١) المرجع السابق، صـ ٣٩ .

(٥٢) جنفيف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، مرجع سابق، صـ ٣٩ .

(٥٣) Jean - Marie Beyssade, In Descartes et le Rationalisme, Actes du Colloque de Tunis, 2-3 Décembre 1996, sous la direction de Mélika ouelbani, Faculté des Sciences Humaines et sociales de Tunis, 1997, p.7.

(٥٤) ibid.

(٥٥) ibid.

(٥٦) ibid., p.p. 7-8.

(٥٧) Jean - Marie Beyssade, In Descartes .. op.cit., p.9.

(٥٨) Jean - Marie Beyssade, In Descartes .. op.cit., p.9.

(٥٩) ibid., p.p. 14-17.

(٦٠) ibid., p. 18.

(٦١) من المعروف أن هناك بعض الاختلافات بين الطبعة اللاتينية والطبعة الفرنسية لكتاب "التأملات"، على الرغم من أن الطبعة الفرنسية قد أجازها ديكارت نفسه بعد مراجعته لها، من أوضح هذه الاختلافات - على سبيل المثال - تقسيم الطبعة الفرنسية الكتاب لفقرات alinéas، لم تكن موجودة فى الطبعة اللاتينية.

(٦٢) Jean - Marie Beyssade, In Descartes .. op.cit., p.18.

(٦٣) ibid., p.21.

(٦٤) ibid., p.21 - 22.

(٦٥) ibid., p.22.

(٦٦) ibid.

(٦٧) ibid., p.22.

(٦٨) ibid.

(٦٩) انظر مقال يوسف كرم بمجلة المقتطف، يوليو ١٩٤٢، ثم رد د. عثمان أمين على تصوره بكتابه ديكارت، ط ٦، صـ ١٢٩ (الهامش).

(٧٠) د. عثمان أمين، أعلام الفلسفة : ديكارت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦، ١٩٦٩، صـ ١٢١ .

(٧١) المرجع السابق، صـ ١٢٥ .

(٧٢) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٦، صـ ٦٨.

(٧٣) المرجع السابق.

(٧٤) المرجع السابق.

(٧٥) المرجع السابق، صـ ٧٠ .

(٧٦) د. نجيب بلدى، نوابغ الفكر الغربى : ديكارت، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، صـ ٨٨ .

(٧٧) المرجع السابق، صـ ٨٩ .

(٧٨) المرجع السابق.

(٧٩) المرجع السابق، صـ ٩٣ .

(٨٠) المرجع السابق.

(٨١) المرجع السابق، صـ ٩٦ .

(٨٢) المرجع السابق، صـ ٩٣ .

(٨٣) المرجع السابق، صـ ٩٤ .

(٨٤) المرجع السابق.

(٨٥) المرجع السابق، صـ ٩٦ .

(٨٦) ذكر هذه المحاورة – على حد علمنا – للمرة الأولى باللغة العربية الأستاذ محمود الخضيرى فى هوامش ترجمته كتاب ديكارت " مقال المنهج "، انظر : رينيه ديكارت، عن المنهج العلمى، ترجمة: محمود الخضيرى، تقديم : د. عثمان أمين، مراجعة : د. محمد مصطفى حلمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠، صـ ٨٣ (الهامش). وسوف نستخدم الطبعة ذاتها فى كل الإحالات الخاصة بمقال المنهج.

(٨٧) Descartes, Recherche de la vérité, op.cit., p.398.

(٨٨) ibid., p. 399.

(٨٩) ibid., p. 400.

(٩٠) ibid., p. 401.

(٩١) ibid., p. 405.

(٩٢) ibid., p. 406.

(٩٣) ibid., p. 409.

(٩٤) ibid., p. 409.

(٩٥) ibid., p. 410.

(٩٦) ibid., p. 411.

(٩٧) ibid., p. 411.

(٩٨) نقـــلاً عن Peter Kunzmann et aures., Atlas de la Philosophie, la Pochothèque, 1993, p. 104.

(٩٩) Pierre Fougeyrollas, Métamorphoses de la Philosophie, Ouverture, Philosophique, Ed. L'harmattan, Paris, p.131.

ديكارت
البحث عن الحقيقة
بواسطة النور الطبيعى

الذى به وحده – ومن دون نجدة الدين أو الفلسفة – تُحدد الآراء التى يجب أن تجعل الإنسان المستقيم (المثقف) يمتلك كل الأشياء التى يمكنها أن تُشكّل موضوع أفكاره، وتخترق أسرار العلوم الأشد عجباً.



تمهيد

ليس ضروريًا أن يكون الإنسان المستقيم[1] (المثقف) قد قرأ كل الكتب، أو درس بعناية كل ما تعلمه فى المدارس؛ أكثر من ذلك سيكون هذا عيبًا فى تعليمه إذا ما كرس كثيرًا من الوقت للآداب؛ إذ إن لديه أشياء أخرى يقوم بها فى الحياة، وعليه أن يديرها بطريقة تجعل الجزء الأكبر منها (حياته) يظل ملكًا له لاستخدامه فى أفعال طيبة، والتى ينبغى أن يُعلمها عقله له، إذا ما كان لا يتلقى دروسًا إلا منه وحده، إذ إنه يأتى جاهلاً بالعالم، ولأن معارف مقتبل عمره ليس لديها سند آخر غير ضعف الحواس أو سلطة الأساتذة، فإنه من المستحيل تقريبًا ألا يكون خياله قد امتلأ بالأفكار الخاطئة التى لا حدود لها قبل أن يستطيع العقل السيطرة عليها؛ وبالقدر ذاته، فيما يلى، فهو فى حاجة إلى طيبة طبيعية أو لدروس مستمرة من رجل حكيم؛ لكى يتحرر من المذاهب الخاطئة التى استولت على عقله وأن يلقى بالأسس الأولى لبعض من علم متين، وليكتشف كل الطرق التى سيمكنه بواسطتها أن يسمو بعلومه إلى أقصى درجة يمكن أن تبلغها.

هذا ما أقترح تعليمه فى هذا الكتاب؛ أردت أن أُخرج إلى النور الثروات الحقيقية لنفوسنا، عندما أفتح لكل فرد الطريق الذى سيجده

فى ذاته نفسـها، ومن دون الاستعانة بأى شىء آخر، ذلك هو العلم الضرورى له لكى يضبط حياته ولكى يكتسب فيما بعد، عندما يمارس كل العلوم الأشد عجبًا أن العقل الإنسانى قادر على أن يحوزها[٢].

ولكن مُذ البداية وخشية من أن تخيفكم عظمة هدفى فلا تصدقوا أقوالى، أبلغكم بأن ما أقوم به ليس بهذه الصعوبة التى يمكن لنا تخيلها؛ لأن المعارف التى لا تتجاوز حدود العقل البشرى مرتبطة بعضها البعض برباط جد مدهش، ويمكن أن تُستنبط بعضها من البعض، بنتائج جد ضرورية وهى ليست فى حاجة إلى فن ما أو إلى قوة إدراك، لو علمنا أن نبدأ بالأشياء الأقل بساطة، وأن نرتفع درجة بعد أخرى حتى أقصى (الدرجات) سموًا[٣]. هذا هو ما أود أن أبرهن عليه هنا بمساعدة سلسلة من التفكير العقلى الواضح والعام؛ حيث يستطيع كل فرد (الوصول إلى ما وصلت إليه) ، وإذا لم يكتشف ما اكتشفته نفسه ، فهذا سيعود فقط إلى أنه لم يلق بنظره من الوجهة الأفضل، ولم يربط أفكاره بالموضوعات ذاتها التى أربط بها أفكارى؛ فأنا لا أستحق مجداً كبيراً على هذا الاكتشاف الذى يمكن أن يستحقه فلاح اكتشف بالصدفة كنزًا تحت قدميه، وكان (الكنز) منذ فترة طويلة تضيع (فرص) العثور عليه.

وبالتأكيد أندهش من أن بين هذا الكم الكبير من الأذهان التى قد نجحت وبشكل أفضل منى، لم يستطع أحد منهم أن يتنازل ويعطى انتباهه (لهذا الأمر)، وربما كلهم قد قاموا بتقليد هؤلاء الرحالة الذين تركوا

الطريق الرئيس؛ لكى يسلكوا طرقًا فرعية مختصرة ثم تاهوا بين الأشواك والحفر.

ولكن ما عرفه أو تجاهله الآخرون، ليس هو ما أريد أن أدرسه هنا. سنكتفى بملاحظة أن كل العلوم التى نستطيع أن نرغبها، ولو كانت متضمنة فى الكتب، مع ذلك كل ما تحتويه هذه الكتب توجد مختلطة بكمية كبيرة جدًا بالأشياء غير النافعة ومتفرقة فى كم كبير جدًا من المجلدات الواسعة، ولكى نقرأها فسنحتاج إلى أزمان أكثر مما يعيشه الإنسان، ومجهود ذهنى كبير لكى نستخلص ما هو مهم أكثر مما لو أوجدناه بأنفسنا(٤).

لدىَّ، إذن، الحق فى أن آمل بأن القارىء لن يغضب عندما يجد هذا طريقًا أكثر سهولة، وأن الحقائق التى سأعلنها لن تُرفض، هذا على الرغم من أننى لم أستعرها من أفلاطون ولا أرسطو؛ وأنها ستكون مثل العملة التى لا تقل قيمتها عندما تخرج من حافظة نقود فلاح أو عندما تخرج من الخزانة العامة، وإضافة إلى ذلك، لقد بذلت عنايتى فى أن أجعل هذه الحقائق نافعة لكل البشر؛ ولهذا الهدف لم أستطع أن أجد أسلوبًا أكثر مناسبة من هذه الحوارات، حيث يعرض كل فرد لصديقيه بشكل مبسط أفضل ما عنده من فكر؛ وتحت أسماء إيدوكس **Eudoxe** ، وبوليندر **Poliandre** وإبيستمون **Epistomon** ، أتصور إنسانًا ذا موهبة بسيطة، لكن تفكيره لم يفسد بأية آراء خاطئة، ويظل عقله مثل ما منحته له الطبيعة.

يزوره فى مسكنه الريفى حيث يسكن رجلان من هذا العصر شديدا العطش للمعارف، لدى كل منهما ذهن شديد التفتح، أحدهما لم يدرس أبدًا، والآخر على العكس يعلم كل ما يمكن أن يتعلمه المرء فى المدارس. وهنا من خلال حوارات يستطيع كل فرد أن يتخيلها بنفسه، أو يجدها فى ظروف المكان وكل الأشياء المجاورة، والتى سأتخذ من بينها غالبًا الأمثلة لكى أجعل تصوراتهما أكثر وضوحًا، وهنا، أقول بأنهم سيضعون الموضوع الذى سيدرسونه حتى نهاية الجزأين(٥).

* * *

بوليندر : أجدكما سعيدين إلى هذه الدرجة لأنكما اكتشفتما كل هذه الأشياء الجميلة فى الكتب الإغريقية واللاتينية، يبدو لى أنه لو كنت قد خضعت لهذه الدراسات نفسها، لاعترضت مثلكما على ما أنا فيه الآن، فيصبح الفارق بينى وبينكما مثل الفارق بينكما وبين الملائكة. ولا أستطيع أن أغفر خطأ آبائى الذين كانوا متأكدين من أن الآداب تضعف العقل، فأرسلونى إلى البلاط الملكى والجيش فى سن غضة جدًا؛ حيث سأشكو جهلى كثيرًا طيلة حياتى، إلا إذا تعلمت شيئًا من حواراتى معكما.

إبيستمون : أفضل شىء ينبغى أن تعلمه أن رغبة المعرفة هى رغبة عامة لكل البشر تشكل مرضًا لا علاج له؛ لأن الفضول يتزايد مع العلم؛ وبما أن عوائق عقلنا تحزننا كلما اكتشفناها، فإنك تتميز عنا بأنك لا ترى بالوضوح ذاته كل الذى ينقصنا.

إيدوكس : هل من الممكن يا إبيستمون وأنت عالم حقيقى أن تقوى على إقناع نفسك بأنه فى الطبيعة ثمة مرض كونى إلى حد كاف لا يمنحنا

القدرة على معالجته بأى دواء ؟ أما بالنسبة لى فأنا أعتقد أنه فى مثل كل البلدان يوجد من الثمار والأنهار ما يكفى لكى يشفى الجوع والظمأ لدى كل البشر الذين يقطنونها. والقدر ذاته ثمة ما يكفى من الحقائق التى يمكن أن نعلمها فى كل مجال لكى نرضى تمامًا فضول العقول السليمة؛ انظر إلى جسد مريض ما بالاستسقاء كما لو أنه ليس أقل مرضًا من عقل هؤلاء المولعين دائمًا بفضول لا يُشبع.

إبيستمون : نعم لقد سمعت قديمًا بأن رغباتنا لا تقوى على الوصول إلى الأشياء التى تبدو لنا مستحيلة؛ ولكن يمكننا معرفة الكثير من الأشياء ونعرف ببداهة إمكان تعلمها، وهى ليست فحسب سليمة ومُرضية؛ ولكن أيضًا نافعة جدًا لسلوكنا فى الحياة، ولا أعتقد أبدًا أن أحدًا ما يعرفها إلى حد كاف؛ لكى تكون لديه دائمًا أسباب مشروعة تقوم بترغيبه فى معرفة المزيد منها.

إيدوكس : ماذا تقولان إذن عنى، لو أكدت لكما أنى لا أرغب فى تعلم أى شىء، وأنا مثل ديوجين Diogène الذى كان سعيدًا ببرميله قديمًا، فأنا أيضًا سعيد بعلمى البسيط، ولذلك فهل أنا لست فى حاجة إلى فلسفته ؟ بالفعل، فمعارف جيرانى لا تحدد معارفى، مثل حقولهم التى تحيط من كل جانب قطعة الأرض البسيطة التى أمتلكها هنا، وعندما يتوجه عقلى بمحض إرادته إلى كل الحقائق التى أوجدها. فهو لا يبحث عن اكتشاف حقائق أخرى؛ ولكن يتمتع بالرضا ذاته الذى يتمتع به ملك لبلاد ما معزولة عن كل البلاد الأخرى؛ حيث يتصور هذا الملك أن بعد حدوده ليس ثمة إلا صحراء قاحلة وجبال لا يمكن السكنى فيها.

إبيستمون : لو أن أحدًا غيرك حدثني بتلك الطريقة، لاعتقدت أنه شديد الكبرياء أو أن فضوله قليل جدًا؛ ولكن العزلة التى جئت لتبحث عنها فى هذا المكان المهجور، وقلة اهتمامك بأن يعرفك الناس، يبعد عنك كل شك فى الكبرياء، ومن جهة أخرى، فالوقت الذى أمضيته فيما مضى فى السفر، وفى زيارة العلماء، واختبار كل ما اكتُشف وكان شديد الصعوبة فى كل علم، يؤكد لنا أنه لا ينقصك الفضول؛ بحيث إنه ليس لدىَّ شىء آخر لقوله إلا أننى أعتبرك راضيًا بشكل كامل، وأعتقد أن علمك أكمل من علوم الآخرين.

إيدوكس : شكرًا لك لأن لديك فكرة جد طيبة عنى، إلا أنى لا أريد أن أستغل كرمك بغرض أن تثق فى حديثى. لا ينبغى أبدًا الإدلاء بافتراضات حتى لو كانت بعيدة كل البعد عن عقائد العامة إذا لم يستطع المرء فى الوقت ذاته أن يؤكدها بإثباتات فعلية؛ ولهذا السبب أرجوكما أن تبقيا هنا فى أثناء هذا الموسم الجميل، لكى أستطيع أن أبين لكما بوضوح القليل الذى أعرفه؛ لأنى سأتجرأ بأن أعد نفسى ليس فقط باعترافكما أنه لدىَّ الحق فى أن أكون راضيًا، ولكن أيضًا ستكونان راضيين تمامًا عمًّا ستتعلمانه من أشياء.

إبيستمون : لا أريد رفض دعوة كنت أتوق إليها.

بوليندر : بالنسبة لى سأكون سعيدًا جدًا أن أحضر هذا النقاش، على الرغم من أنى لا أعتقد بأنى لا أستطيع الاستفادة منه.

إيدوكس : ثق يا بوليندر، أنه على العكس سيكون لك شديد النفع، لأن عقلك متحرر من الأفكار المسبقة، وسيكون من السهل جدًا علىَّ أن أوصل للرأى السديد من لم يتبع رأى أحد، مثل إبيستمون، الذى سنجده دائمًا فى الطرف المعارض، ولكن لكى تدرك بشكل أكثر وضوحًا طبيعة المذهب الذى سأعرضه عليك، أرجوك أن تسجل الفرق بين العلوم والمعارف البسيطة التى نكتسبها من دون معونة التعقل، مثل اللغات، والتاريخ، والجغرافيا، وبصفة عامة كل ما لا يتعلق إلا بالخبرة. أعترف بحقيقة أن حياة إنسان ما لا تكفى لاكتساب خبرة كل ما هو موجود فى العالم؛ إلا أننى متأكد أنه سيكون من الجنون أن يرغب شخص ما فى ذلك، وليس من الواجب على رجل مستقيم (مثقف) أن يعرف اليونانية أو اللاتينية أكثر من السويسرية أو لغة جنوب (مقاطعة) بُرطانى، وتاريخ الإمبراطورية الرومانية – الجرمانية أكثر من تاريخ أصغر دولة تقع فى أوروبا. لا ينبغى أن يكرس وقت فراغه إلا لأشياء مفيدة ومستقيمة، وألا يملأ ذاكرته إلا بالأشياء الأكثر ضرورية. أما بالنسبة إلى العلوم التى ليست شيئًا آخر إلا أحكامًا مؤكدة نؤكد بها معلومة ما اكتسبناها من قبل، فالبعض يستنتج منها أشياء بسيطة ومعروفة للجميع، والبعض الآخر (يستنتج) خبرات أقل ندرة وتقتضى مهارة فائقة. أعترف بأنه ليس فى مقدورنا أن نتناول على وجه الخصوص كل ما ذكرناه؛ بالفعل، سيجب علينا أولاً اختبار كل الحشائش والأحجار التى تأتى إلينا من الهند؛ وسينبغى علينا أن نكون قد رأينا العنقاء، وباختصار ألا نجهل ما هو شديد الروعة فى الطبيعة، ولكنى أعتقد بأنى سألتزم بشكل كاف

بوعودى عندما أشرح لك الحقائق التى يمكن استنباطها من أشياء عادية ومعروفة للجميع، وأجعلك قادرًا على أن تجد بنفسك كل الحقائق الأخرى، لو حكمت بأنها تستحق عناء البحث.

بوليندر : أعتقد أيضًا أن هذا هو كل ما نستطيع أن نأمله، وسأكون راضيًا لو علمتمانى ولو قليلاً هذه المسائل المعروفة جدًا إلى الدرجة التى لا يجهلها أحد، على سبيل المثال: المسائل التى تخص الإلوهية، والنفس العاقلة، والفضائل، والثواب المنتظر منها، .. إلخ، وهى مسائل أقارنها بتلك العائلات القديمة التى يعترف بها الجميع لشهرتها، على الرغم من أن جميع ألقاب نبالتها قد دفنت تحت أطلال الماضى. لأنى لا أشك بأن من سبقونا الذين جعلوا النوع الإنسانى يعتقد فى هذه الأشياء قد استخدموا أسبابًا صالحة ليبرهنوا على ذلك؛ ولكن هذه الأسباب نادرًا جدًا ما تكررت بحيث لا يعلم بها أحد؛ وعلى الرغم من ذلك فالحقائق التى تقيمها هى جد مهمة بحيث إن الحذر يفرض علينا أن نؤمن بها.

إبيستمون : أما بالنسبة لى، فأنا فضولى إلى حد كبير، وبسرور سأرغب إضافة إلى ذلك، أن تشرح لى بعض الصعوبات الخاصة التى ألقاها فى كل علم، وبشكل أساسى فيما له علاقة بأسرار الفنون، والأشباح، والأوهام.. باختصار بكل التأثيرات الرائعة المنسوبة إلى السحر؛ لأنى أعتقد أنه من المناسب معرفة هذه الأشياء، لا لكى نستخدمها، ولكن لكى لا يبقى أى شىء غير معروف له القدرة على زعزعة أحكامنا.

إيدوكس : سأحاول إرضاء كل منكما، ولكى نتبين أمرًا يمكننا الاحتفاظ به حتى النهاية، فأنا أرغب أولاً يا بوليندر، أن نتباحث فيما بيننا حول كل الأشياء التى يحتويها العالم متفحصين لها فى ذاتها؛ إلا أنك يا إبيستمون لا تقطع حديثنا إلا بأقل ما هو ممكن، لأن أهدافه (أهداف قطعك لحديثنا) ستجبرنا فى الغالب على إبعادنا عن موضوعنا. حينئذ سنتفحص من جديد كل هذه الأشياء، ولكن بوجهة نظر أخرى، أى بمعنى أن نعتبرها تعود علينا، ويمكن أن تُستدعى حقيقة (كان ذلك) أم خطأ، حسنة (كانت هذه الأشياء) أم سيئة. وسيجد إبيستمون هنا الفرصة ليعرض كل المشكلات التى سيبدو له أن الحديث السابق لم يكشف عنها.

بوليندر : قل لنا إذن: أى أمر تراه (نافعًا) فى شرح كل شىء؟

إيدوكس : سنبدأ بالنفس العاقلة، لأنها أساس كل معارفنا؛ وبعد أن نتفحص طبيعتها وأفعالها، سنصل إلى خالقها؛ وفى الوقت الذى سنعرف فيه من هو وكيف خلق كل الأشياء الموجودة فى العالم، سنلاحظ ما هو أشد تأكيدًا ويمس المخلوقات الأخرى، وسنختبر كيف أن حواسنا تدرك الموضوعات وكيف أن أفكارنا تصبح صحيحة أو خاطئة؛ عندئذ سأضعك فى مواجهة الأعمال المادية للإنسان، وبعد شد انتباهك إلى منظر الآلات شديدة القوة والآليات شديدة الندرة، والرؤى الأكثر خداعًا والدورات الأشد دقة والتى يمكن للفن اختراعها، سأكشف لك عن أسرارها شديدة البساطة بحيث ستفقدك كل إعجاب لما تصنعه أيادينا.

وسنصل بعد ذلك إلى أعمال الطبيعة، وبعد أن أوضح لك السبب فى كل تغيراتها، وتنوع خصائصها، والعلة التى من أجلها تختلف النباتات والحيوانات نفسها عن نفوسنا، سأجعلك تتفحص بنية الأشياء البديهية. وبعد أن أحكى لك عن كل ما نلاحظه فى السماء وما يمكن أن نستخلصه مما هو مؤكد، سأعرج على أشد الحدسيات سلامة حول الأشياء التى لا يمكن أن يُعرِّفها الإنسان، لأشرح لك علاقة الأشياء الحسية بالأشياء الذهنية وعلاقتهما بالخالق، لكى أعرض لك خلود المخلوقات والحالة التى ستكون عليها فى نهاية الزمان. هنا سنقترب من الجزء الثانى من هذا النقاش؛ إذ سنعالج هنا وبشكل خاص كل العلوم، وسنختار ما هو أشد تماسكًا فى كل منها، وسوف نقترح منهجًا ما لكى ندفع بها بعيدًا جدًا ولكى نجد بأنفسنا، وبعقل بسيط، كل ما يمكن حتى للعقول الأشد براعة أن تكتشفه، وهكذا بعد أن يكون ذكاؤك قد أُعد ليميز الحقيقة بشكل كامل، سيكون فى حاجة أيضًا ليعوِّدك على إدارة إرادتك، ذلك لتميز الخير من الشر وتلاحظ الفارق الحقيقى بين الفضائل والرذائل، وآمل أن يحقق هذا، بألا يصبح تعطشك للمعرفة شديد العنف، وأن الأشياء التى سأحدثك عنها تبدو لك جد مبرهن عليها بحيث تعتقد (فى الأخير) أن رجلاً ما ذا عقل سليم، تربى فى صحراء ما ولم يتم تنويره أبدًا إلا بالنور الطبيعى، ألن يستطيع، إذا ما اختبر بعناية الأسباب ذاتها، أن يصل إلى رأى آخر مثل رأينا. لكى نبدأ هذا الحديث، ينبغى أن نختبر ما المعرفة الأولى للإنسان؟ وفى أى جزء من النفس تقع؟ ومنذُ البداية من أين جاءت (فرضية). أنها جد غير تامة؟

إبيستمون : كل هذا يبدو لى مشروحًا بوضوح كبير إذا ما قارنا تخيل الأطفال بلوح مصقول عليه أفكارنا، كما لو كانت الصور المطابقة لكل موضوع، ينبغى أن ترتسم عليه، فالمعانى وميول العقل والمربون والذكاء، هم مختلف الرسامين الذين يستطيعون إعداد هذا العمل؛ إلا أنه بينهم الأقل قدرة على إنجاز ما بدأه، أى المعانى غير الكاملة، والغريزة العمياء، والحاضنات الحمقاوات، ويأتى أخيرًا الأكثر قدرة من الجميع، الذكاء، الذى مع ذلك فى حاجة إلى تعليم ما يستغرق عديدًا من السنوات، وأن يتابع لفترة طويلة نموذج أساتذته قبل أن يتجرأ على تصحيح أى من أخطائهم. بالنسبة لى ها هو ذا واحد من الأسباب الرئيسة التى بسببها نصل بصعوبة شديدة إلى العلم؛ لأن حواسنا لا تدرك إلا الأشياء الأشد فظاظة والأشد عمومية؛ فميولنا الطبيعية بأكملها فاسدة، أما بالنسبة إلى الأساتذة، فلأنه بلا شك ثمة ما هو كامل فيهم، ومع ذلك فهم لا يستطيعون إجبارنا على الإيمان بعللهم أو الاعتراف بها قبل أن يختبرها ذكاؤنا، الذى تُنسب إليه وحده هذه المهمة. ولكن الذكاء مثله مثل رسام ماهر، تم استدعاؤه ليُنهى لوحة خططها تلاميذ، لن يستطيع، على الرغم من أنه استخدم كل قواعد فنه ليصحح بالتدريج خطأً هنا أو خطأً هناك، ولكى يضيف كل ما ينقص – أقول لن يستطيع أن يمنع بقاء أخطاء كبيرة، لأنه فى مبدأ البداية الأولى قد صممت بشكل سيئ، فوُضعت الوجوه فى أماكنها غير الصحيحة، كما حُسبت النسب بشكل سيئ(٦).

إيدوكس : ملاحظتك ستجعلنا نرى بوضوح العقبة الأولى التى توقفنا، إلا أنك لم تعلمنا الوسيلة التى يمكننا استخدامها لنتفادى ذلك؛ أما بالنسبة لى فإليك بها : فبالقدر نفسه إذا كان من الأفضل أن يبدأ رسامنا اللوحة كلية من جديد، بعد أن يكون قد مسح كل الخطوط، فهو أفضل من أن يضيع وقته فى إصلاحها، وبالقدر نفسه سيكون كل البشر، فى الوقت الذى يصلون فيه إلى العمر الذى يبدأ فيه الذكاء فى التوقد، فسينبغى أن يصمموا مرة على أن يُمحوا من مخيلتهم كل هذه الأفكار غير التامة والتى قد تثبتت حتى هذه اللحظة، وأن يبدؤوا بجدية فى تشكيل (أفكار) أخرى جديدة، عندما يوجهون نحو هذا الهدف كل فطنتهم وذكائهم؛ لأنه إذا ما لم تقدهم هذه الوسيلة إلى الكمال، فعلى الأقل لن يلقوا بالخطأ فيها على ضعف الحواس أو على أخطاء الطبيعة.

إبيستمون : بالتأكيد ستكون هذه الوسيلة الأفضل إذا ما أمكن استخدامها بسهولة؛ إلا أنك لا تجهل أن الآراء الأولى التى تلقيناها فى مخيلتنا تظل مطبوعة بطريقة لا تكفى إرادتنا وحدها لمحوها، على الأقل إن لم تُستخدم نجد بعض العلل المتماسكة.

إيدوكس : هنا أيضًا بعض من هذه العلل التى أود أن أخبرك بها، وإذا ما أردت جنى بعض الثمرات من هذا الحوار، فسأحتاج إلى أن تعيرنى الآن انتباهك، وأن تتركنى أتحاور قليلاً مع بوليندر، لكى أهدم أولاً كل المعارف التى اكتسبها حتى يومنا هذا، وكما أن هذه المعارف لا تكفى لإرضائه، فهى بالفعل لا يمكن لها إلا أن تكون سيئة،

وأنا أقارنها بصرح ما سيىء البناء، أساساته ليست قوية بالقدر الكافى، ولا أعرف دواء أفضل من القيام بهدمه كاملاً لكى أقوم ببناء صرح جديد؛ لأنى لا أريد أن أضع نفسى بين هؤلاء العمال منزوعى الموهبة الذين لا يعملون إلا فى إصلاح الأبنية القديمة، لأنهم غير قادرين على بناء الجديد منها. لكن يا بوليندر، وقتما نكون منشغلين بهدم ذلك الصرح، سنستطيع فى الوقت نفسه وضع الأسس التى ينبغى استخدامها فى مشروعنا، وإعداد أفضل المواد وأكثرها صلابة لتثبيتها. فقط شريطة قبول أن تختبر معى الحقائق الأكثر يقينية وبساطة التى نعرفها، من كل الحقائق التى يمكن للبشر أن يعرفوها.

بوليندر : هل ثمة أحد يشك فى أن الأشياء الحسية (وأفهم من ذلك تلك التى تُرى وتُمس) تكون أكثر وأشد يقينية من الأشياء الأخرى ؟[٧]، بالنسبة لى، سأندهش غاية الاندهاش إذا ما أظهرت لى منها بوضوح واحدة من الأشياء التى نقول عنها إن مصدرها الله أو أنفسنا.

إيدوكس : آمل مع ذلك أن أفعل؛ إذ يبدو لى مدهشًا أن يكون البشر ساذجين إلى الحد الذى يبنون فيه علمهم على يقين الحواس؛ بحيث لا يجهل أحد أن الحواس تخدعنا أحيانًا، وأنه لدينا أسباب قوية لكى نشك دائمًا فيما أوصلنا إلى الخطأ ولو لمرة واحدة[٨].

بوليندر : أعرف، حقًا، أن الحواس تخدعنا أحيانًا، إذا ما لم تكن فى حالة طيبة، مثلما تبدو، مثلاً، كل الأغذية مُرة الطعم لمريض ما؛ أو إذا ما كانت (الحواس) بعيدة جدًا، كما على سبيل المثال،

عندما نتأمل النجوم، التى لا تبدو لنا أبدًا كبيرة كما هى فى الواقع، أو عمومًا عندما لا تتصرف (الحواس) بحرية، تبعًا لتكوين طبيعتها. ولكن كل أخطائها نتعرف عليها بسهولة، ولا تمنع من أن أكون الآن متأكدًا من أنى أراك، وأنى أتنزه هنا فى حديقة ما، وأن الشمس تسطع؛ باختصار، أن كل ما يقدم نفسه إلى حواسى بشكل عادى هو حقيقى.

إيدوكس : بما أنه، إذا قلت لك إن الحواس تخدعنا فى بعض الحالات التى لاحظتها، فهذا لا يكفى لكى أجعلك تخشى أن الحواس فى حالات أخرى لا تخدعك بلا علمك، سأذهب بعيدًا، وأعرف إن لم ترَ أبدًا رجلاً مصابًا بالمانخوليا من نوع هؤلاء الذين يعتقدون بأنهم زهريات مليئة بالماء، أو أن لديهم بعض أجزاء من جسدهم ذات حجم ضخم – سيقسمون على أنهم يرون ذلك بهذا الشكل، وأنهم يلمسونه مثلما يتخيلونه، وفى الحقيقة أن هذا سيثير سخطًا، ما ستقول عنه ليست ثمة أسباب أفضل عندما ينظر إلى رأيه وكأنه مؤكد ، بحيث إنه لا يستند، وكذلك رأيهم، إلا على شهادة الحواس والتخيل. ولكن ألا تجد أنه من السوء أن أسألك إذا ما لم تكن تنام مثل كل البشر، وإذا ما نمت، فإنك لا تستطيع الاعتقاد بأنك ترانى، وبأنك تتنزه فى هذه الحديقة، وأن الشمس تسطع عليك؛ باختصار، كل الأشياء التى تعتقد أنها تُدرك الآن إدراكًا واضحًا ؟ ألم تسمع أبدًا، فى الهزليات القديمة، بصيغة التعجب هذه : هل أنا نائم ؟ كيف تستطيع أن تكون متأكدًا من أن حياتك ليست حلمًا أبديًا، وأن كل ما تعتقد أنك تتعلمه بواسطة الحواس

ليس أيضًا خطأ الآن مثلما هو فى أثناء نومك(٩)، وفى الأخص عندما تعرف أنك قد خُلقت بواسطة كائن أعلى، وباعتباره شديد القدرة، ليس من الصعب عليه أن يخلقك تبعًا لما قلته توًا ولا كما تعتقد أنت أنك موجود عليه ؟

بوليندر : هذه بالتأكيد، أسباب ستكفى لقلب علم إبيستمون كله، بشرط أن يستطيع أن يمعن هنا نظره بشكل كاف. أما فيما يخصنى، فسأخشى أن أصبح مجنونًا، إذا ما قمتُ أنا الذى لم أدرس قط، ولم أتعود أن أحول ذهنى هكذا عن الأشياء المحسوسة - بالتركيز على تأملات تتعدى حدود قدراتى بشكل كبير.

إبيستمون : أعتقد أيضًا أنه من الخطر التقدم على نحو بعيد جدًا على هذا الطريق، فالشك المطلق بهذه الطريقة سيقودنا مباشرة إلى الجهل بسقراط أو بشكوك البيرونيين(١٠)، وهو ما يشبه ماء عميقًا يبدو لى من خلاله أنه من المستحيل إيجاد وقع لأقدامنا.

إيدوكس : أعترف بأنه ليس من دون مجازفة كبيرة سيذهب هؤلاء الذين لا يعرفون المعبر من غير الاعتماد على مرشد فى هذه المياه العميقة، وقد يغرق الكثير منهم، لكن ما دمتما تتتبعانى، ولا تخشيان التقدم للأمام؛ لأن مخاوف من هذه الطبيعة منعت كثيرًا من الباحثين المتميزين من اكتساب معارف صلبة ويقينية إلى الحد الذى تستحق فيه اسم العلوم؛ ولنتخيل أنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا اعتقادهم يستند إلى شىء أكثر رسوخًا أو أكثر صلابة سوى على الأشياء الحسية، (فمعنى هذا) أنهم

يبنون على هذه الرمال، أكثر مما يبذلون الجهد، فيما هو أبعد من ذلك عندما يتقدمون فى حفرهم للأمام، ليجدوا أرضًا أكثر رسوخًا. لا ينبغى، إذن، التوقف هنا؛ أكثر من ذلك، فعلى الرغم من هذا فأنت لا تريد اختبار العلل بشكل أكبر والتى قلت لك عنها بأنها ستنتج فعلها الرئيس، وسيتحقق هدفى إذا ما أثرت كثيرًا على تخيلكما لكى أنبهكما إلى أن هذا هو البرهان، وأن علمك ليس معصومًا تمامًا لأنك لا تخشى إلا على الأسس التى قد تتهدم، بحيث إنها ستجعلك تشك فى كل شىء، حتى وإن كنت لا تشك الآن فى علمك، إضافة إلى ذلك، فبهذا البرهان سأبلغ هدفى، الذى يتمثل فى هدم علمك كله عندما أبين لك موضع الشك فيه، ولكن، خوفًا من ألا تقل شجاعتك ومن ألا ترفض متابعتى إلى الأمام كثيرًا، سأعلن لك بأن هذه الشكوك، التى أثرت عليك أولاً بالخشية، تجمع هذه الأشباح وهذه الصور غير المجدية التى تبدو لك أثناء الليل، وبمساعدة نور ما خافت وغير مؤكد؛ ستظل خشيتك تلاحقك إذا ما هربت منها، ولكن إذا ما اقتربت منها لتلمسها مثلاً، فلن تجد شيئًا سوى هباء وظلال، وفى المستقبل لن يضطرب عقلك فى الظروف المماثلة.

بوليندر : أريد أيضًا وأنا مقتنع بآرائك وبواسطة عللك، أن تقدم لى هذه الصعوبات فى أشد وأقصى قوتها الممكنة وتجعلنى أشك فى أننى لم أكن مجنونًا طيلة حياتى، وحتى كل هذه الأفكار التى كانت تبدو لى أنها لم تدخل عقلى إلا من باب الحواس، وذلك لنقول إنها لم تتشكل فيه من تلقاء نفسها، كما تتشكل فيه أفكار مماثلة عندما أغط فى النوم

أو أكون متأكدًا بأن عينيَّ مغلقتان، وأذنيَّ مسدودتان، وباختصار بأنه لا توجد حاسة من حواسي تشارك في هذا بشيء. أشك بطريقة تجعلني أراك ليس فقط بأنك في العالم، ولكن ليس ثمة أرض ولا سماء، بل وليست لديَّ عينان، وأذنان، وجسد، وحتى في أني أتناقش معك، وبأنك تتوجه بالحديث إليّ، باختصار، سأتشكك في كل شيء(١١).

إيدوكس : ها أنت مُعد بشكل جيد جدًا، وأنه هنا بالتحديد كنت أود أن أصل بك، ولكن ها هي اللحظة التي ينبغي أن تعرني فيها انتباهك إلى النتائج التي أريد أن أستخلصها من هذه المقدمات المنطقية(١٢). أترى، أنه حقيقي أن تستطيع الشك بحق في كل الأشياء التي لم تصل إليك معرفتها إلا عبر نجدة الحواس؛ لكن هل تستطيع أن تتشكك في شكك، وتظل غير متأكد من أنك تشك أو لا تشك ؟

بوليندر : أعترف بأن هذا يغمرني بالدهشة، والقليل من حدة الذهن الذي أُدين به لحسي السليم الضعيف يجعلني لا أرى نفسي بغير ذهول وأنا مجبر على الاعتراف بأني لا أفعل شيئًا ببعض من التأكيد، وبأني أشك في كل شيء، وبأني لست متأكداً من شيء. ولكن ماذا تريد أن تستنتج من هذا ؟ لا أرى في ما يمكن أن تفيد هذه الدهشة الكونية، ولا لماذا شك كهذا يمكن أن يشكِّل مبدأ ما سيمكننا من خلاله استنباط شيء جد بعيد. والهدف الذي وضعته لهذا الحوار هو على العكس (يهدف إلى) أن نتحرر من شكوكنا، وأن نعرف حقائق يمكن أن يجلها إبيستمون، مهما كان عالمًا.

إيدوكس : أعرنى انتباهك فحسب، وسوف أحملك بعيدًا جدًا عما تتصور؛ لأنه من خلال هذا الشك المطلق، باعتباره نقطة ثابتة وغير متحركة، أريد أن أستنبط معرفة الله، ومعرفتك، وأخيرًا معرفة كل الأشياء الموجودة فى الطبيعة.

بوليندر : إنها بالتأكيد وعود كبيرة، لها قيمتها بشرط أن تتحقق، وأن نوافق على ما طلبت. كن مخلصًا إذن لوعودك، وسنكتفى بما لدينا.

إيدوكس : بعد هذا لن تستطيع إنكار أنك كنت تشك، بل على العكس فمن المؤكد أنك كنت تشك، وحتى إذا كان من المؤكد أنك لا تستطيع أن تشك، فحقيقى أيضًا أنك أنت الذى تشك موجود، وهذا حقيقى جدًا إلى حد أنك لا تستطيع أن تشك أكثر من ذلك(١٣).

بوليندر : أنا معك فى هذا الرأى؛ لأنى إذا لم أكن موجودًا، فما كان يمكننى أن أشك.

إيدوكس : إذن أنت موجود، وتعرف أنك موجود، وتعرف ذلك لأنك تشك.

بوليندر : كل هذا حقيقى.

إيدوكس : ولكى لا تخرج عن مسارك، فلتتقدم خطوة خطوة، ومثل ما قلته لك ستجد هذا الطريق يسير بعيدًا عما تتصور، ولنكرر الحجة : أنت موجود، وتعرف أنك موجود، لأنك تعرف أنك تشك، ولكنك أنت الذى تشك فى كل شىء ولا تستطيع أن تشكك فى نفسك، من أنت(١٤) ؟

بوليندر : الإجابة ليست بصعبة، وأخمن لماذا اخترتنى كمحاور مفضلاً إياى عن إبيستمون؛ لأنك لا تريد أن تسأل أى سؤال من السهل جدًا الإجابة عنه. فسأقول إذن إننى إنسان.

إيدوكس : إنك لم تنتبه إلى ما سألتك عنه، والإجابة التى قدمتها لى مهما بدت لك سهلة، فستلقى بك فى مسائل شديدة الصعوبة، وشديدة التشعب، لو أردت قليلاً أن أدفع بك إليها. وفعلاً لو سألت مثلاً إبيستمون نفسه ما الإنسان؟ ولو أجابنى مثلما نجيب فى المدارس، إن الإنسان حيوان عاقل، ولو إضافة إلى ذلك، لكى يشرح هذين المصطلحين، وهما لا يقلان غموضًا عن الإجابة الأولى، فسيقوداننا على كل المستويات لما نطلق عليه ميتافيزيقا، بالتأكيد سنكون منقادين فى متاهة لا يمكننا الخروج منها أبدًا. ومن خلال هذا السؤال سيتولد سؤالان آخران : الأول : ما الحيوان ؟ والثانى : ما العاقل ؟ وإضافة إلى ذلك، لو سنشرح ما الحيوان، فسيُجاب علينا بأنه حيوان حى ذو حواس، وأن حيوانًا حيًا هو جسم متحرك، وأن الجسم هو جوهر جسدى، وستجد فى الحال أن التساؤلات ستتزايد وستتعدد مثل فروع شجرة عائلية، وبديهى إلى حد كافٍ بأن كل هذه الأسئلة الجميلة ستنتهى بمحض لغو لن يوضح شيئًا وسيتركنا فى جهلنا الأول[١٥].

إبيستمون : إنه لحزن كبير أن أراك تحتقر بهذه الشدة شجرة فورفوريوس، تلك التى دائمًا ما أثارت إعجاب كل العلماء، وأكثر من ذلك فأنا غاضب لأنك تحاول أن تعلم لبوليندر ما يكونه (ماهيته) عن طريق

منهج آخر غير ذلك الذى يتم تعليمه منذ وقت طويل فى جميع المدارس. بالفعل، لم نستطع حتى اليوم العثور على منهج أفضل لكى يعلمنا من نحن، سوى أن نضع تدريجيًا أمام أعيننا كل المستويات التى تشكِّل مجمل وجودنا، وذلك لنستطيع عندما نصعد وعندما ننزل على هذه المستويات أن نتعلم ما لدينا من مشترك مع الكائنات الأخرى، وما نختلف به عنها؛ وأنه هنا أعلى نقطة يمكن أن يصل إليها الذكاء الإنسانى.

إيدوكس : أبدًا فأنا لم أضع، ولن أضع، فى ذهنى أن أستنكر منهج التعليم المستخدم فى المدارس؛ لأن القليل الذى أعلمه كان بفضله، وأنه بمعونته تعرفت الشك فى كل ما تعلمته، وأيضًا، على الرغم من أن مُعلميَّ لم يعلمونى أبدًا شيئًا مؤكدًا، مع ذلك فإنا أدين لهم بالشكر لأنى تعلمت منهم أن أعترف بهذا، وأنا مدين لهم بالشكر على ما تعلمته من أن كل شىء مشكوك فيه حتى وإن كان متطابقًا مع العقل؛ لأنه فى هذه الحالة لربما كنت قد اكتفيت بالقليل من العقل الذى كنت قد اكتشفته، ولجعلنى ذلك أقل ولعًا فى البحث عن الحقيقة(١٦). هكذا إذن، فالتحذير الذى وجهته إلى بوليندر ليس فقط من أجل أن أجعله يلاحظ عدم دقة إجابته التى يلقيها عليك وغموضها، ولكن لكى أجعله نفسه فى المستقبل أكثر انتباهًا لأسئلتى. ولكن سأعود إلى مشروعى؛ ولكى لا نبعد عنه أكثر من ذلك، سأسأله من جديد ما الذى يكونه؟ وهو الذى يستطيع الشك فى كل شىء ولا يستطيع أن يشك فى نفسه.

بوليندر : كنت أعتقد بأنى قد أرضيتك فى هذا الجانب عندما قلت لك بأنى إنسان؛ ولكنى أعترف الآن أن إجابتى لم تكن محسوبة. لأنى أرى أنها لا ترضيك؛ ولكى أتحدث بصراحة، إنها لم تعد مرضية لى الآن، خصوصًا عندما أرى ما بينته لى من المضايقات والشكوك التى يمكن أن تغرقنا فيها إذا أردنا إيضاحها وفهمها. بالفعل، مهما يقل إبيستمون، فإنى أجد كثيرًا من الغموض فى هذه المستويات الميتافيزيقية. لو قلنا مثلاً، إن جسمًا ما هو جوهر جسدى من دون أن نعرِّف فى الوقت ذاته ماذا يعنى جوهر جسدى، هاتان الكلمتان: جوهر جسدى، لا يجعلاننا بأية طريقة كانت أكثر علمًا من كلمة جسد، بالقدر ذاته، إذا ما زعم شخص ما بأن الكائن الحى هو جسم متحرك، دون أن يشرح قبل ذلك معنى كلمتى جسم و متحرك، ولا يفعل مثل ذلك لكل المستويات الميتافيزيقية الأخرى، بالتأكيد هو ينطق كلمات، وحتى كلمات مرتبة داخل نظام معين، ولكنه لا يقول شيئًا؛ لأن هذا لا يعنى شيئًا يمكن أن يكون متصورًا، ويشكل فى ذهننا فكرة واضحة ومتميزة. ثمة أكثر من ذلك : لكى أجيب إجابة مرضية، أجبت بأنى إنسان، ولم أفكر فى كل هذه الكائنات المدرسية غير المعروفة بالنسبة لى، ولم أكن قد سمعت عنها من قبل، والتى على ما أعتقد، لا توجد إلا فى مخيلة هؤلاء الذين اخترعوها؛ ولكنى كنت أريد الحديث عن الأشياء التى نراها، والتى نلمسها، والتى نحس بها والتى نعاينها بأنفسنا؛ باختصار، أشياء يعرفها أبسط البشر كما يعرفها أعظم فلاسفة الكون؛ أخيرًا كنت أريد

القول بأن كل ما هو مكون من ذراعين، وساقين، ورأس وكل الأجزاء الأخرى التى تكوِّن هذا الذى نطلق عليه الجسد الإنسانى، هذا الكل، إضافة إلى ذلك، يتغذى، ويسير، ويحس ويفكر.

إيدوكس : كنت أستنتج من إجابتك من قبل بأنك لم تفهم جيدًا سؤالى، وأنك كنت تجيب عن أشياء أكثر مما طلبت منك؛ ولكن كما وضعت من قبل فى عداد الأشياء التى تشك فيها الذراعين، والساقين، والرأس وكل الأعضاء الأخرى التى تكوِّن آلة الجسد البشرى، فأنا لم أرد أبدًا أن أسألك عن كل هذه الأشياء التى تشك فى وجودها. قل لى إذن من أنت شخصيًا، باعتبارك تشك؛ لأن هذه هى النقطة الوحيدة، بحيث إنك لن تستطيع معرفة أكيدة بأى شىء آخر، وهذا ما كنت أود أن أسالك عنه.

بوليندر : أرى الآن بالتأكيد، أنى أخطأت فى إجابتى، وأننى ذهبت بعيدًا أكثر مما ينبغى، لأننى لم أفهم بقدر كاف فكرتك. وهذا أيضًا يجعلنى فى المستقبل أكثر انتباهًا، ويجعلنى فى الوقت ذاته معجبًا بدقة منهجك، والطريقة التى تقودنى بها خطوة خطوة، بطرق سهلة وبسيطة، إلى معرفة الأشياء التى تريد أن تعلمنى إياها، ومع ذلك لدينا بعض مبررات لتسمية الأخطاء التى ارتكبتها بالموفقة، بحيث إنى مدين لها الآن بمعرفة ما الذى أكونه، باعتبارى أشك، وهو ما لا يمكن أبدًا أن أسميه جسدى، وإضافة إلى ذلك فأنا حتى لا أعرف إن كان لدى جسد، ما دمت قد أوضحت لى أنى أستطيع الشك فيه؛ وأضيف إلى ذلك أيضًا

أننى لا أستطيع أن أنكر أبدًا أن لدى جسدًا، مع ذلك، وعلى الرغم من تركنا بشكل كامل كل هذه الافتراضات، فإن هذا لا يمنع من أنى لست متأكدًا من وجودى؛ وعلى العكس، فهى تؤكد لى بأشد تأكيد أنى موجود وأنى لست جسدًا. بطريقة أخرى، إذا ما كنت أشك فى جسدى، فسأشك أيضًا فى نفسى، وهو مستحيل بالنسبة لى؛ لأنى متأكد تمامًا أنى موجود، ومقتنع بهذا الشكل بأنى لا أستطيع أن أشك أبدًا فى ذلك(١٧).

إيدوكس : تتحدث بطريقة رائعة، وتعالج بشكل أكثر من طيب المسألة التى تشغلنا، حتى إننى شخصيًا لا أستطيع أن أقول أفضل من ذلك. إنى أرى أنه ليس ثمة حاجة إلى أن أتركك كلية لنفسك، بعد أن أوصلتك إلى الطريق، وأكثر من ذلك، لكى تكتشف الحقائق حتى الأشد صعوبة، أعتقد أنه سيكفى ما نطلق عليه بشكل مبسط الحس العام، بشرط أن يكون الإنسان مع ذلك قد أُحسنت قيادته؛ وبما أنى أجد أن الشرط قد تحقق لديك كما كنت أرغب، فسأكتفى مستقبلاً بأن أوضح لك الطريق التى ينبغى أن تسلكها. استمر إذن فى أن تستنبط بنفسك نتائج هذا المبدأ الأول.

بوليندر : يبدو هذا المبدأ لى شديد الخصوبة، وكثير من الأشياء تقدم نفسها فى الوقت ذاته لى، وأعتقد حتى أنى سأجد كثيرًا من الصعوبة فى تنظيمها. التحذير الوحيد الذى وجهته لى، أن أختبر ما أكونه، أنا الذى أشك، وألا أخلط بين ما كنت عليه بما كنت أعتقد من

قبل أنه أنا، وهذا ما ألقى كثيرًا من النور فى عقلى ومُذ البداية إذا كنا قد أبعدنا الظلمات كثيرًا عنا، فإنه بنور هذه الشعلة أرى بشكل أفضل ما لم أستطع أن أراه فى نفسى من قبل، وأننى أيضًا لم أعتقد أبدًا بهذا القدر أنى أمتلك جسدًا، وأنى أمتلك ما لا يُحس(١٨).

إيدوكس: تعجبنى هذه الحرارة كثيرًا، على الرغم من أنها ربما لا تعجب إبيستمون، الذى لم تنتزعه من خطئه أبدًا ولم تضع أمام عينيه جزءًا من الأشياء التى قلت إنها موجودة داخل هذا المبدأ، سيكون لديه دائمًا مبرر لكى يعتقد، أو فى الأقل ليخشى، ألا يكون هذا النور الذى أُعطىَ إليك شبيهًا بهذه النيران الهائمة التى تُطفأ وتنتهى عندما يُقترب منها، وحينئذ سرعان ما ستعود إلى ضلالاتك الأولى، وأعنى بذلك إلى جهلك القديم. وبالتأكيد سيكون إعجازًا أنك أنت، الذى لم تدرس، وأنت الذى لم تقرأ أعمال الفلاسفة، أن تصبح عالمًا بهذه السرعة وبهذه السهولة. فلا تتعجب إذن أن إبيستمون يحكم عليك بهذه الطريقة.

إبيستمون: أعترف بهذا، لقد اعتبرت ذلك رد فعل حماسيًا، وأعتقد أن بوليندر، الذى لم ينكب أبدًا على معرفة الحقائق الكبرى التى تُعلِّمُها الفلسفة، قد لحقه هذا القدر من الفرح عندما اختبر أقل شىء منها، حيث لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يعبر لك بهذه التعبيرات، ولكن هؤلاء الذين، ساروا طويلاً فى هذا الطريق مثلك، والذين بذلوا جهدًا كبيرًا وعسيرًا لقراءة وإعادة قراءة ما كتبه الأقدمون، لحل وشرح كل ما هو صعب لدى الفلاسفة – فلن يتعجبوا من تعبيرات الفرح هذه ولن يهتموا

به أكثر من حالة الأمل الخائب الذى يعشق به البعض من الذين لم يتخطوا بعد مداخل الرياضيات. بالفعل هؤلاء، بمجرد ما تعطى لهم خَطًا ما ودائرة ما، وتعلمهم ما الذى يعنيه خط مستقيم وخط ملتوٍ، يعتقدون بأنهم سيكتشفون تربيع الدائرة وتضعيف المكعب(١٩) .

ولكننا كثيرًا ما رفضنا مذهب البيرونيين، وهم أنفسهم لم يكتسبوا سوى القليل جدًا من ثمرات منهج تفلسفهم، لقد حاروا طيلة حياتهم ولم يستطيعوا أن يتحرروا من الشكوك التى أدخلوها على الفلسفة، بحيث يبدو أنهم لم يعطوا انتباههم سوى لتعليم الشك. هكذا حتى لو لم يعجب هذا بوليندر، أشك فى أن يستطيع أن يستخرج من هنا شيئًا أفضل.

إيدوكس : أرى جيدًا، أنه عندما توجه الحديث إلى بوليندر فأنت تريد أن تعفينى من سخريتك؛ ومع ذلك فمن الجلى أنى أنا المقصود. ولكن فلنترك بوليندر ليستمر فى حديثه؛ وسنجد بعد ذلك من منا سيضحك أخيرًا.

بوليندر : سأفعل ذلك مُرحِّبًا، أكثر من ذلك أخشى أن يشتعل هذا النقاش بينكما، وإذا ما تحاورتما على مستوى أعلى، فلن أفهم منكما شيئًا؛ وسأجد نفسى محرومًا من ثمرة ما وعدت نفسى بجنيه من العودة إلى دراساتى الأولى. أرجو إذن من إبيستمون أن يتركنى وأملى أن يكون إيدوكس ما زال راغبًا فى أن يرشدنى بيديه إلى الطريق الذى وضعنى فيه.

إيدوكس : لقد اعترفت من قبل بحق، عندما تنظر إلى نفسك ببساطة بأنك كائن يشك، وبأنك لست بجسد، ونتيجة لذلك فأنت لا تجد في نفسك أية أعضاء تكوِّن آلة الجسد الإنساني، أعني بذلك لا ذراعًا، ولا سيقانًا، ولا رأسًا، ولا عيونًا، ولا آذانًا، ولا أي عضو يمكن أن يُستخدم في أي حس كان، ولكن فلتر لو بالطريقة ذاتها غير أنك لا تستطيع رفض كل الأشياء الأخرى التي فهمتها منذ حين في تعريف الإنسان، كما كنت تتصوره من قبل، لأنه، كما قلت بحق، أيضًا خطأ موفق كالخطأ الذي ارتكبته عندما تجاوزت في إجابتك حدود سؤالي؛ فعلاً بمعونته، تستطيع الوصول إلى معرفة ما تكونه، عندما تتفادى وترفض كل ما ترى بوضوح أنه لا يخصك، وعندما لا تعترف بشيء لا ينتسب إليك، إلا أن تكون بالقدر ذاته وبالضرورة متأكدًا منه كما تكون متأكدًا من وجود شكك.

بوليندر : شكرًا لك على أنك أعدتني بهذا إلى طريقي، لأني لم أعد أعرف أين كنت. قلت منذ قليل بأني كنتُ كُلاً مشكّلاً من ذراعين، وساقين، ورأس، وبالاختصار كل الأعضاء الأخرى التي تكوِّن ما نطلق عليه الجسد الإنساني؛ أكثر من ذلك، كُلاً كان يمشي، كان يتغذى، كان يشعر ويفكر، وكان أيضًا من الضروري، لكي أرى نفسي ببساطة ما أعرف أنني أكونه، أن أرفض كل هذه الأجزاء أو كل هذه الأعضاء التي تشكِّل آلة الجسد الإنساني، بمعنى أن أرى نفسي دون ذراعين، ودون ساقين، ودون رأس، وباختصار دون جسد. ولكن صحيح أن

هذا الذى يشك فى نفسى ليس ما نطلق عليه أنه جسدنا؛ وبالتالى صحيح أيضًا، بأنى، باعتبارى أشك، فأنا لا أتغذى، ولا أمشى؛ لأنه لا الفعل الأول ولا الفعل الثانى من هذين الفعلين يمكن أن يتم من دون الجسد. أكثر من ذلك فلا أستطيع حتى أن أؤكد أنى، باعتبارى أشك، أستطيع أن أحس، لأنه بقدر ما تكون الأقدام ضرورية للسير، بقدر ما تكون أيضًا العينان ضروريتين للإبصار والأذنان للسمع؛ وباعتبار أنى ليس لدى أى عضو من هذه الأعضاء، بحيث ليس لدى جسد، لا أستطيع القول بأنى أحس، وإضافة إلى ذلك، اعتقدت من قبل أنى أشعر فى المنام بالكثير من الأشياء التى مع ذلك لم أشعر بها فى الواقع؛ حيث إنى قد اتخذت قرارًا بألا أقبل هنا أى شىء لا يكون بهذا القدر من الحقيقة التى لا أستطيع الشك فيها، ولا أستطيع القول بأنى شىء يحس، بمعنى شىء يرى بعينيه ويسمع بأذنيه؛ لأنه من الممكن أن أعتقد بأنى أحس بهذه الطريقة، وهذا على الرغم من أنه لا واحد من هذه الأفعال قد تم[٢٠].

إيدوكس : لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أوقفك هنا، وهذا ليس لحرفك عن طريقك، ولكن لتشجيعك وجعلك تختبر ما يقدر عليه الحس السليم المحكوم جيدًا. بالفعل فى كل ما قلته لتوك، هل ثمة شىء غير دقيق، شىء لا يكون قد تم استنتاجه بمشروعية واستنباطه بتدقيق ؟ ومع ذلك فكل هذه النتائج تُفهم من دون منطق، ومن دون صياغة حجج، بمساعدة أنوار العقل وحدها والحس السليم[٢١]، والذى هو أقل عرضة للخطأ عندما يتصرف وحده وبنفسه فى غير الحالة التى يعمل فيها بقلق

على ملاحظة ألف من القواعد المتنوعة مثل فن البشر وكسلهم، وهو ما اختُرع بالأحرى للتضليل أكثر من أن ينشد الدقة. حتى إبيستمون سيبدو هنا أقرب إلى وجهة نظرى، لأن صمته يعطى الانطباع بأنه يقر ما قلته لك. استمر إذن يا بوليندر، وبيِّن له إلى أى درجة يمكن للحس السليم أن يذهب، وفى الوقت نفسه النتائج التى يمكن استنباطها من مبادئنا.

بوليندر : من كل الخصائص التى أُعطيت لى، فلا يبقى إلا واحد لاختباره، الفكر، وأجد أنه وحده من طبيعة ما لا يمكننى فصلها عن نفسى؛ لأنه إذا كان حقيقيًا أنى أشك، كما لا أستطيع الشك فى ذلك، فإنه حقيقى أيضًا أنى أفكر. ماذا يعنى بالفعل الشك، أو أن أفكر بطريقة معينة ؟ مؤكد إذا لم أكن-أفكر، فلن أستطيع معرفة إذا ما كنت أشك ولا إذا ما كنت موجودًا. أنا موجود مع ذلك، وأعرف أنى موجود، وأعرف ذلك لأنى أشك، بمعنى نتيجة أنى أفكر ؛ وحتى يمكن الوصول إذن، لو للحظة، كنت أتوقف عن التفكير، أتوقف فى الوقت نفسه عن الوجود، هكذا إذن الشىء الوحيد الذى لا أستطيع أن أفصله عن نفسى، هو أنى أعرف بيقين أنى أنا، وأنى أستطيع الآن أن أؤكد بلا خوف من أن أخطئ، أنى كائن مفكر(٢٢).

إيدوكس : ماذا ترى يا إبيستمون، فيما قاله بوليندر لتوه ؟ هل تجد فى كل منطقه شيئًا ما مختلاً أو ليس مترتبًا على ما سبقه ؟ أكنت تعتقد أن شخصًا ما أُميًا وبدون دراسات يفكر بهذه الدقة وكان شديد الاتساق مع نفسه ؟ من هنا إذن، إذا ما كنت أحكم جيدًا، فسينبغى

عليك أن تبدأ برؤية أنه عندما يعرف الإنسان استخدام شكه بشكل مناسب يمكن أن يستنبط منه معارف يقينية جداً، وحتى شديدة اليقينية وشديدة النفع أكثر من كل هذه المعارف التى نعتمد عليها بشكل عادى حول هذا المبدأ الكبير، الذى نجعله قاعدة لها كلها والمركز الذى تقصده كل المعارف وتنتهى إليه : من المستحيل أن يكون الشىء نفسه ولا يكون فى اللحظة نفسها. ربما ستكون لدىَّ الفرصة لأبيِّن لك أهمية ذلك؛ ولكى لا أقطع حبل أفكار بوليندر، دعنا لا نخرج عن موضوعنا، ولتسأل نفسك لمعرفة إذا ما لم يكن لديك شىء لتقوله أو لتعترض عليه.

إبيستمون : بما أنك اتخذت موقفًا ضدى، وأنك حتى تقوم بوخزى، فسأبين لك ما يمكن (أن يفعله) المنطق الثائر، فى الوقت ذاته سأسبب لك هذه الحيرة وتلك العوائق التى لن يستطيع بوليندر وحده، ولا حتى أنت، الخروج منها إلا بصعوبة شديدة. علينا ألا نذهب إذن أبعد من ذلك، بل بالأحرى علينا التوقف هنا، ولنختبر بصرامة المبادىء التى تستخدمها كقاعدة وأيضًا استنتاجاتك؛ لأنه بمساعدة المنطق الحقيقى، وبواسطة مبادئك ذاتها، سأبرهن على أن كل ما قاله بوليندر لا يستند إلى أى أساس شرعى ولا يُستنتج منه شىء. تقول إنك موجود، وإنك تعرف أنك موجود، وإنك تعرف ذلك لأنك تشك ولأنك تفكر، ولكن هذا الذى تشك فيه، وهذا الذى تفكر فيه، هل تعرفه ؟ وحيث إنك لا تريد أن تقر بشىء لا تكون متأكدًا منه، وحيث إنك لم تكن تعرف تمامًا، فكيف يمكنك أن تكون متأكداً بأنك موجود عندما تعتمد على أسس شديدة الغموض وقليلة

اليقين بصورة كبيرة ؟ كان ينبغى عليك أن تُعلِّم بوليندر أولاً ما معنى الشك، والفكر، والوجود، لكى يستطيع عقله أن يحظى بقوة البرهان، وأن يستطيع بنفسه أن يفهم نفسه قبل أن يرغب فى القيام بإفهام ذلك للآخرين.

بوليندر : ذلك هو ما يفوق قدرتى؛ أعترف بهزيمتى، وأترك لك حل هذه العقدة مع إبيستمون.

إيدوكس : فى هذه المرة آخذ على عاتقى ذلك بكل سرور، ولكن بشرط أن تكون أنت حَكَمًا لنقاشنا؛ لأنى لا أتجرأ بأن أعد نفسى بأن إبيستمون سيستسلم لتعليلاتى، فمثله ممن يمتلئ بآراء وبأحكام مسبقة، سيكون من الصعب جدًا عليه أن يثق فى نور الطبيعة وحده، فبالفعل ومنذ زمن بعيد تعوَّد على الخضوع للسلطة[٢٣] عوضًا عن الاستماع إلى صوت عقله الخاص؛ فهو يفضِّل استجواب الآخرين، ووزن ما كتبه القدامى أكثر مما يستشير نفسه حول الحكم الذى يجب أن يصدره. وبالقدر نفسه ومُذ الطفولة اعتبر العقل كل ما لا يرتكز إلا على سلطة معلميه، وهو يقدم الآن سلطته باعتبارها العقل، ويريد أن يجعل الآخرين يدفعون الضريبة نفسها التى دفعها فيما مضى، ولكن سيكون ثمة سبب لسعادتى، وسأعتقد أنى سأرضى بشكل كبير عن الاعتراضات التى طرحها عليك إبيستمون، إذا ما وجهت بصيرتك إلى ما سأقوله، وإذا ما أقنعك عقلك بذلك.

إبيستمون : أنا لست متصلب الرأى، ولا من الصعب جداً إقناعى كما تتصور، وعلى الرحب أتحمل أن يتم إرضائى. أكثر من ذلك، فمهما كان لدى من أسباب لكى أتحدى بوليندر، فأنا لا أطلب أفضل من أن نضع قضيتنا بين يديه؛ وأعدكما أيضًا أن أعترف بهزيمتى فى الحال وأستسلم، ولكن عليه (بوليندر) أن يتجنب مخاطر أن يُغرر به ليقع فى الخطأ الذى يلوم عليه الآخرين، بمعنى أن يتخذ من التقدير الذى أحطته أنت به سببًا مقنعًا.

إيدوكس : إذا ما كان (بوليندر) قد اعتمد على أساس ما جد ضعيف، فمن المؤكد أنه سيدرك مصالحه بشكل سيىء، وأجيب مقدمًا بأنه سيتجنب ذلك بشكل جيد، ولكن كفانا استطرادًا؛ ولنعُد إلى موضوعنا. أتفق معك يا إبيستمون، على ضرورة معرفة ما معنى الشك، والفكر، والوجود قبل أن تكون مقتنعًا بشكل كامل بحقيقة هذا الاستدلال : أنا أشك، إذن أنا موجود j'existe[٢٤]؛ أو الشىء نفسه : أنا أفكر إذن أنا موجود. ولكن لا تذهب إلى أن تتخيل أنه لاكتساب هذه المفاهيم الأولية سينبغى إكراه وتعذيب عقلنا لكى يصل إلى النوع الأكثر قربًا للاختلاف الجوهرى، وأن يكوِّن من هذه العناصر تعريفًا ما هو حقيقى. ولنترك هذه المهمة لمن يرغب فى ممارسة دور الأستاذ أو لمن يريد المجادلة فى المدارس، ولكن من يرغب فى اختبار الأشياء بنفسه وأن يحكم عليها تبعًا لما يدركه فيها، لا يمكن أن يكون ذا عقل شديد البلادة وألا يكون لديه قدر من النور لكى يرى بشكل كافٍ، فى كل المرات التى ينتبه فيها،

مـا مـعنى الشك، والفكر، والوجـود، وبأنه سـيكون من الضـرورى له أن يتعلم من ذلك أن يميز إضـافة إلى ذلك، فإن أشيـاء عديدة نجعلها أكثر غموضًا عندما نريد تعريفها، لأنه باعتبارها شديدة البساطة وشديدة الوضوح، فسيكون من المستحيل علينا معرفتها وفهمها أفضل من ذاتها. أكـثر مـن ذلك، ولعـدد الأخطاء الكثـيـرة جـدًا التى يمكن أن يرتكبـهـا الإنسان فى العلوم، ربما سينبغى إضافة خطأ هؤلاء الذين يريدون تعريف مـا لا ينبغـى إلا أن ندركه، وهؤلاء الذين لا يستطيعـون تمييـز الأشيـاء الواضحة من الأشيـاء الغامضة، ولا تمييز ما يقتضـى ويستحق أن يتم تعريفه لكى يُعرَّف، من ذلك الذى ربما يكون مُدركًا بنفسه بشكل جيد جدًا(٢٥)، إذن فى عداد الأشياء شديدة الوضوح والتى نعرفها بذاتها، يمكننا الشك، والفكر والوجود.

ولا أعتقد أبدًا أن ثمة شخصًا ما غبيًا إلى حد كبير لكى يكون فى حاجة إلى أن يتعلم ماذا يعنى الوجود، قبل أن يستطيع استنتاج وتـأكيد أنه مـوجود، وهكذا بالنسـبـة إلى الشك والفكر. وسـأضـيف أيضًـا إنه مـسـتـحيل أن يتـعلم هـذه الأشيـاء بطريقة أخـرى غـير ذاته، وأن يكون متـأكدًا منها بطريقة أخرى غير تجربته الخاصة، وعن طريق ذلك الوعى أو هذه الشـهادة الداخلية التى يجدهـا كل إنسان فى داخله عندما يقوم باختبار أية مـلاحظة كانت؛ بطريقة تجعل من غير المجدى تعريف مـاذا يعنى الأبيض لكى نقـوم بنقل فـهم هذا اللون إلى كـفيف مـا، بينمـا لكى نعرفه سيكفينا فتح عيوننا ورؤية الأبيض، وبالطريقة نفسها، لمعرفة ما

معنى الشك والفكر، سيكفى أن نشك ونفكر، وسيعلمنا هذا كل ما يمكننا أن نتعلمه بهذا الخصوص، وحتى سنقول فى هذا أكثر مما ستقوله التعريفات شديدة الدقة(٢٦). إذًا حقيقى أن بوليندر وجب عليه معرفة هذه الأشياء قبل أن يستطيع استنباط النتائج التى قام بصياغتها. ومع ذلك، وبما أننا اخترناه حَكمًا، فلنسأله إذا ما جهل ما يعنيه الشك، والوجود، والفكر.

بوليندر : أعترف وبسعادة بالغة بأنى قد استمعت لنقاشك حول مسألة أنك لم تستطع التعلم إلا منى، ولا أرى دون بعض من الفرح أنه ينبغى على الأقل فى هذه الفرصة، أن تعترف بى كأستاذ لك، وأن تعترف بنفسك بأنك من تلاميذى، ولهذا ولكى أخرجكما من مأزقكما وأقوم مباشرة بحل مشكلتكما (بالفعل نقول عن شىء ما بأنه عمل مباشر عندما يحدث على عكس كل أمل أو توقع)، يمكننى أن أشهد لكما بأنى لم أشك قط فيما يعنيه الشك، وأنى لم أبدأ أيضًا فى معرفته، أو بالأحرى فى التفكير فيه، إلا عندما أراد إبيستمون أن يضعه موضع الشك. لقد أوضحت لى لتوك الشك القليل الذى لدينا عن وجود الأشياء التى لا نعرفها إلا بمعونة الحس، وأنى بدأت الشك فى هذه الأشياء، وسيكفى هذا لكى يجعلنى أعرف شكى ويقين هذا الشك فى الوقت نفسه؛ أستطيع إذن التأكيد بأنى بدأت أعرف نفسى فى الوقت الذى بدأت فيه الشك؛ ولكن هذا لم يكن فى الموضوعات نفسها التى يعود إليها شكى ويقينى؛ لأن شكى كان ينطبق فقط على الأشياء الموجودة خارجى،

وكان يقينى ينطبق على شكى وعلى ذاتى نفسها. كان إذن إيدوكس مُحقًا فى قوله إن ثمة أشياء لا نستطيع معرفتها إلا عند رؤيتها، وأيضًا لكى نعرف ما معنى الشك، وما معنى الفكر، فلا يجب سوى الشك والتفكير فى ذاته نفسها، وهكذا الوجود، ينبغى فحسب معرفة ما تفهمه بواسطة هذه الكلمة؛ نعرف فى الحال الشىء، وبأقل قدر ممكن على الإنسان معرفتها، ولهذا فهو ليس فى حاجة إلى تعريفات؛ إذ إنها تجعل الشىء غامضًا أكثر من أن توضحه(٢٧).

إبيستمون : بما أن بوليندر مسرور، فأنا أيضًا أستسلم ولن أدفع بالخلاف إلى أبعد من ذلك؛ مع هذا فأنا لا أرى أن الأمر قد تقدم كثيرًا منذ نحو ساعتين من النقاش. كل ما تعلمه بمساعدة هذا المنهج الجميل الذى تتباهى به كثيرًا، أنه يشك، وأنه يفكر، وأنه شىء مفكر. لعله اكتشاف رائع فى الواقع ! وإنه لكلام كثير من أجل الوصول إلى القليل من الأشياء. كان بإمكاننا قول كل شىء فى أربع كلمات، ولكننا جميعًا متفقون. أما بالنسبة لى إذا ما كان الأمر يتطلب منى كثيرًا من الكلام والوقت لكى أتعلم شيئًا ذا أهمية قليلة كهذه – فقد يكون من الصعب علىَّ أن أتقبل ذلك، وإضافة إلى ذلك يعلِّمنا أساتذتنا وهم الأكثر علمًا؛ حيث لا شىء يوقفهم، فهم يأخذون كل شىء على عاتقهم ويتحدثون فى كل شىء؛ ولا شىء يصدهم عن هدفهم ولا يدهشهم؛ وأخيرًا مهما حدث، عندما يجدون أنفسهم فى غاية الاستعجال، فإن إيماءة ما أو التمييز الدقيق le distinguo يخلصهم من كل صعوبة. كونا على ثقة أيضًا من أن

منهجهم سيكون مفضلاً دائمًا على منهجكما، الذى يشك فى كل شىء ويخشى كثيرًا من التعثر de broncher فى أن يسير بلا احتراز ومن دون توقف فهو لا يتقدم أبدًا.

إيدوكس : لم يكن قصدى قط أن أشرح لأى فرد المنهج الذى ينبغى اتباعه فى البحث عن الحقيقة، أردت فقط عرض المنهج الذى استخدمته، فإن حكمنا عليه بأنه سيىء رفضناه، وإذا ما كان على العكس جيدًا ونافعًا، فثمة آخرون سيستخدمونه أيضًا، ويبقى أن أترك كل فرد حُرًا تمامًا فى الاعتراف به أو رفضه(٢٨). وإذا ما قيل الآن إنه لم يتقدم بى إلا قليلاً، فإن التجربة هى التى سوف تحكم عليه، وإنى لعلى يقين، شريطة أن تستمرا فى إعارتى انتباهكما، وستعترفان لى بنفسكما بأننا لن نستطيع أن نكون حذرين فى بناء المبادىء، وأنه فى المرة التى توضع فيها المبادىء بشكل متين، سيمكننا أن ندفع بالنتائج بعيدًا جدًا ونستنبطها بسهولة كبيرة أكثر مما تجرأنا على وعد أنفسنا به(٢٩). وأعتقد أيضًا أن كل الأخطاء التى تقع فى العلوم تأتى مما نقوم به عندما نبدأ بحكم شديد التسرع، عندما نعتمد الأشياء الغامضة على أنها مبادئ والتى ليس لدينا عنها أى مفهوم واضح أو متميز(٣٠). وما يبرهن على حقيقة هذا الزعم، هو التقدم القليل الذى حققناه فى العلوم ذات المبادىء اليقينية المعروفة من الجميع من جهة، بينما من جهة أخرى، فى تلك العلوم ذات المبادىء الغامضة وغير المؤكدة، فإن هؤلاء الذين يودون أن يكونوا مخلصين، فهم مجبرون على الاعتراف بأنهم بعد

أن أنفقوا كثيرًا من الوقت وقرؤوا كثيرًا من المجلدات اعترفوا بأنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا ولم يتعلموا شيئًا(٣١). إذن لا تندهش، عزيزى إبيستمون، إذا ما أردنا أن نرشد بوليندر إلى طريق أكثر أمنًا من ذلك الطريق الذى تعلمته، فإنى صارم إلى درجة أنى لا أعتبر حقيقيًا إلا ما لدى عنه يقين يعادل يقينى فى أنى أكون وأنى موجود، وأنى أفكر وأنى أكون شيئًا مفكرًا.

إبيستمون : تبدو لى على شاكلة هؤلاء القافزين الذين يقعون دائمًا على أقدامهم؛ إذ تعود دائمًا إلى مبدئك؛ وإذا ما مكثت على هذه الحال، فلن تستطيع لا الذهاب بعيدًا ولا بسرعة، وبالفعل كيف سنجد دائمًا حقائق نستطيع أن نكون متأكدين منها كما نحن متأكدون من وجودنا ؟

إيدوكس : هذا ليس صعبًا كما تظن، لأن كل الحقائق تتعاقب الواحدة تلو الأخرى وهى متماسكة فيما بينها بالرابط نفسه. السر كله يكمن فى البدء (بالحقائق) الأولى وبالأكثر بساطة، والارتقاء بعد ذلك ببطء وعلى درجات حتى الحقائق الأكثر بعدًا والأكثر تركيبًا(٣٢). إذًا من ذا الذى سيشك فيما وضعته على أنه مبدأ لن يكون الأول من كل الأشياء التى يمكننا معرفتها ببعض من المنهج ؟ بالفعل من المعاين أننا لا نستطيع الشك فيه، نحن سنشك على الرغم من ذلك فى حقيقة كل ما يحتويه الكون، ثم إننا إذن متأكدون من أننا بدأنا جيدًا، لذا ينبغى لكى لا نضل فيما بعد، أن نهتم، وهو ما نفعله، بألا نقبل أبدًا ما هو موضوع لأقل شك على أنه حقيقى(٣٣). ولهذا الغرض ينبغى – كما أرى –

أن تترك بوليندر يتكلم وحده، وباعتبار أنه ليس تابعًا لأى أستاذ آخر سوى الحس المشترك، وباعتبار أن عقله ليس مفسدًا بأى أحكام مسبقة، سيكون ربما من المستحيل ألا يخطئ، أو على الأقل سيدرك هذا بسهولة، وسيعود بيسر إلى الطريق المستقيم.

إبيستمون : فلنستمع إليه إذن وهو يتحدث، ولنتركه يعرض الأشياء التى يقول عنها إنها متضمنة فى مبدئك.

بوليندر : ثَمَّ كثير من الأشياء المتضمنة فى الفكرة التى تقدم كائنًا ما مفكرًا الذى ينبغى علينا (قضاء) أيام بأكملها لكى نقوم بتطويرها. إلا أننا الآن لن نعالج سوى (الأشياء الرئيسة وتلك التى تخدم فى جعل مفهوم هذا الكائن أكثر وضوحًا، والتى تميزه عن كل ما ليس له علاقة به (المفهوم). أفهم من كائن مفكر ...

* * *

(إلى هنا انتهت المحاورة التى لم يستكملها ديكارت قبل وفاته)

الهوامش

(١) الكلمة فى النص الفرنسى الأصلى هى honnête وهى تعنى بفرنسية اليوم (أمين) وكانت تعنى فى القرن السابع عشر من يرضى ضميره الذاتى بخلاف ما كانت تقضيه الكنيسة من سلوك المؤمنين بها، ولقد حرصنا على ترجمة الكلمة بالمستقيم أو المثقف انظر إلى : Lalande, Vocabulaire technique et critique de la Philosophie, P.U.F., Paris, 1972, p.420.

(٢) ولعل هذا هو الطريق الذى توصل إليه ديكارت من قبل فى "مقال المنهج" عندما قال : ".. تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما بحكم التقليد أو العادة، وكذلك تخلصت شيئًا فشيئًا من كثير من الأوهام، التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى وتنقص من قدرتنا على التعقل. ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على هذه الحال فى كتاب العالم، فى الاجتهاد وفى تحصيل بعض التجربة، فإننى عزمت فى بعض الأيام أن أبحث أيضا فى نفسى وأن أحرف قواى العقلية كلها فى اختيار الطرق التى يجب أن أسلكها .." (رينيه ديكارت، عن المنهج العلمى، ترجمة : محمود الخضيرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، صـ ٨٢، ٨٣).

(٣) قارن ذلك مع ما يقوله ديكارت فى " مقال المنهج " من أن علوم الهندسة " يسرت لى أن أتخيل أن كل الأشياء، التى يمكن أن تقع فى متناول المعرفة الإنسانية تتتابع على طريقة واحدة، وأنه إذا تحامى المرء قبول شىء منها على أنه حق مع أنه ليس حقا، وإذا حافظ دائمًا على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض، فإنه لا يمكن أن يوجد بين هذه الأشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن إدراكه، أو من الخفاء بحيث لا يُستطاع كشفه. ولم يعننى كثيرًا البحث عن الشىء الذى تدعو الحاجة إلى البدء به لأننى عرفت من قبل أن يكون بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة".. (عن المنهج العلمى، ترجمة : محمود الخضيرى، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٩).

(٤) يتحدث ديكارت تفصيلاً عن هذه العلوم فى "مقال المنهج" ، وكيف أنها أدت إلى وقوعه فى الزلل : "اشتغلت قليلا بالمنطق من بين أقسام الفلسفة، وبالتحليل الهندسى والجبر من بين أقسام الرياضيات، وهى ثلاثة فنون أو علوم كان يبدو لى أنها لابد أن تمد مشروعى بشىء، ولكننى، عند امتحانها تبينت، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الأخرى هى أدنى أن تنفع فى أن نشرح للغير ما نعرف من الأمور، بل هى كفن، ينفع فى أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز (...) ثم أنه فيما يختص بتحليل الأقدمين وبجبر المحدثين، ففوق أنها لا تتسع إلا لأمور مجردة جدا، وتبدو كأنها لا تطبيق لها (...) وفى الأخير يتقيد بقواعد ورموز جعلتا منه فنا مبهما وغامضا يحير العقل، بدلاً من أن يكون علما يثقفه. وهذا ما كان سببًا فى أنى فكرت فى وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا هذه العلوم الثلاثة، خاليا من عيوبها". (عن المنهج العلمى، ترجمة : محمود الخضيرى، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٢ - ٩٦).

(٥) فى النص الأصلى الكتابان les deux livres ، ولكن كان المقصود بها فى القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر الفصلين أو الجزأين.

(٦) قارن هذا بما يقوله ديكارت فى "مقال المنهج" فى أنه "من العسير أن نقوم بأعمال كاملة ما دام كل عملنا هو تكميل عمل الغير" (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ٨٦).

(٧) انظر ما يقوله ديكارت عن أصحاب هذا القول فى "مقال المنهج" : "إنهم لا يرفعون عقولهم قط إلى ما فوق الأشياء المحسوسة، وإنهم تعودوا ألا يعتبروا شيئًا من الأشياء إلا إذا تخيلوه (..) حتى أن كل ما لا يمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم" (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ١٣٣ - ١٣٤).

(٨) قارن هذا بما قاله ديكارت فى "مبادىء الفلسفة" : "لكن لما كان غرضنا الآن مقصورًا على الانصراف إلى البحث عن الحقيقة، فبوسعنا أن نشك أولا بصدد الأشياء التى وقعت تحت حواسنا أو التى تخيلناها إطلاقًا فنتساءل : هل منها ما هو موجود حقا فى العالم. وذلك لأن التجربة دلتنا على أن حواسنا قد خدعتنا فى مواطن كثيرة، وأنه يكون من قلة التبصر أن نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة .. " (ديكارت، مبادىء الفلسفة : سلسلة النصوص الفلسفية ٦، ترجمة : د. عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، صـ ٥٤) - وأيضا بما كتبه فى "التأملات" : "كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة

الحواس غير أنى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة؛ ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة". (ديكارت، التأملات فى الفلسفة الأولى، ترجمة : د. عثمان أمين، سلسلة نفائس الفلسفة الغربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٤، صـ ٧٢ - ٧٣).

(٩) قارن هذا بما جاء "بمبادىء الفلسفة"، إذ يقول ديكارت : "ويبدو لنا حينذاك أننا نحس بشدة ونتخيل بوضوح عددًا لا يحصى من الأشياء التى ليس لها وجود فى الخارج. ومتى صمم الإنسان على أن يشك فى كل شىء لم يعد يجد علامة للتمييز بين الخواطر التى ترد علينا فى حالة النوم وتلك التى ترد علينا فى حال اليقظة " (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٤،٥٥).

(١٠) وهم المنتمون إلى مذهب الفيلسوف اليونانى بيرون Pyrrhone (٣٦٥ ق.م-٢٧٥ ق. م).

(١١) قارن هذا بما يقوله ديكارت فى "مقال المنهج" : ".. نظرًا إلى رغبتى (..) فى أن أفرغ للبحث عن الحقيقة، رأيت أنه يجب على أن أفعل نقيض ذلك (اليقين)، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك، على أنه باطل على الإطلاق، وذلك لأرى إن كان لا يبقى فى اعتقادى بعد ذلك شىء لا يحتمل الشك " (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ١١٨). وبما يقوله فى "التأملات" : ".. تلقيت طائفة من الآراء الباطلة وكنت أحسبها صحيحة، وأن ما بينته مُذ ذلك الحين على مبادىء هذه حالها من الزعزعة والاضطراب لا يمكن أن يكون إلا شيئًا مشكوكًا فيه جدا ولا يقين له أبدًا. فحكمت حينئذ بأنه لابد لى مرة فى حياتى من الشروع الجدى فى إطلاق نفسى من جميع الآراء التى تلقيتها فى اعتقادى من قبل .. " (ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ٧١) وهو ما يتفق مع ما أقره ديكارت فى "مبادىء الفلسفة"، وهو المبدأ الأول "فى أنه للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة فى حياته إلى أن يضع الأشياء جميعا موضع الشك بقدر ما فى الإمكان" (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٣).

(١٢) قد تبدو العبارة السابقة غريبة، عما حاول ديكارت أن ينفيه طيلة حياته، وهو أن الكوجيتو ليس استدلالاً منطقيا، ولكنه حدس ومبدأ بديهى، بينما فى نصنا هذا يتحدث ديكارت عن نتائج تُستخلص من مقدمات منطقية، وهو ما حاول ديكارت دوما التصدى له، خاصة عندما رد على اعتراض جاسندى Gassendi . ولعل هذا نفسه ما جعل ديكارت من قبل يتخلى عن الكلمة ergo أو donc (إذن) التى جاءت فى "مقال المنهج"

سنة ١٦٣٧، بينما اختفت فى "التأملات" سنة ١٦٤١ لتعود مرة أخرى "مبادىء الفلسفة" سنة ١٦٤٤، وحتى فى محاورتنا هذه، ولعله هنا لا يريد أن ينكر منطقية الاستدلال أيضا إلى جانب الحدس، لأنه سيشير فيما بعد مع تطور المحاورة إلى عدم الحاجة إلى المنطق أو صياغة الحجج مكتفيا بأنوار العقل والحس السليم.

(١٣) قارن هذا بما يقوله ديكارت فى "مبادىء الفلسفة"، ففى المبدأ السابع يقر بأننا "لا نستطيع أن نشك دون أن نكون موجودين وأن هذه أول معرفة يقينية يُستطاع الحصول عليها". ومن هنا يقرر بأننا " .. لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين حين نشك فى حقيقة هذه الأشياء جميعا، لأن مما تأباه عقولنا أن نتصور أن ما يفكر لا يكون موجوداً حقًا حينما يفكر " (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٦). على هذا النحو يفصل ديكارت الأمر فى "مقال المنهج" . ".. لما اختبرت بانتباه ما كنت عليه، ورأيت أننى قادر على أن أفرض أنه لم يكن لى أى جسم ، وأنه لم يكن هناك أى عالم، ولا أى حيز أشغله؛ ولكننى لست بقادر، من أجل هذا، على أن أفرض، أننى لم أكن موجوداً: بل على نقيض ذلك، فإن نفس كونى أفكر فى الشك فى حقيقة الأشياء الأخرى، يستتبع استتباعًا جد واضح وجد يقينى أننى كنت موجوداً" (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ١٢٠).

(١٤) لعل ديكارت فى سؤاله هذا يود توجيه اتجاه بوليندر إلى أن وجوده الذى يمكن أن يثبته هو وجود فكرى، إضافة إلى ربطه الوجود بالتفكير، وهو ما جاء "بالتأملات" على لسان ديكارت على النحو التالى : " أنا كائن، وأنا موجود : هذا أمر يقينى. ولكن إلى متى ؟ أنا موجود ما دمت أفكر، فقد يحصل أنى متى انقطعت عن التفكير تمامًا انقطعت عن الوجود بتاتا ".

(ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٩).

(١٥) قارن هذا بما كتبه ديكارت فى " التأملات " : " .. كنت أظننى إنسانا بلا شك. ولكن ما هو الإنسان ؟ أأقول إنه حيوان ناطق ؟ كلا بالتأكيد : لأن هذا يقتضى بعدئذ أن أبحث عن معنى الحيوان وعن معنى الناطق، فأنزلق بذلك من مسألة واحدة إلى الخوض من دون شعور منى فى مسائل أخرى أصعب وأكثر تعقيداً .. " (ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٦، ٩٧).

(١٦) قارن ما يقوله ديكارت هنا عن دراسته الأولى بما قاله فى " مقال المنهج " : " غذيت بالآداب منذ طفولتى واقتنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل رغبتى فى تعلمها. ولكن ما كدت أنتهى من هذه المرحلة من الدراسة، حيث كانت العادة قبول الإنسان عند نهايتها فى مرتبة العلماء، حتى غيرت رأيي كل التغيير. ذلك بأننى وجدت نفسى يحيرنى من الشكوك والضلالات، ما بدا لى معه أننى لم أكتسب من اجتهادى فى التعليم، إلا تبينى شيئا فشيئا جهالتى. على أنى كنت فى مدرسة من أشهر مدارس أوروبا (...) ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيرى، بل إننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم، تصفحت كل ما وصل إلىّ من كتب فى العلوم التى يعتبرونها أعجب العلوم وأندرها (...) وعلى كل حال فإننى ما غمطت حق ما يشتغلون به فى المدارس من الدروس .. " (ديكارت، مقال عن المنهج، مصدر سبق ذكره، صـ ٧٣ - ٧٥).

(١٧) يوضح ديكارت هذه النقطة فى كتابه "المبادىء"، فيقول فى المبدأ الثامن : ".. نعرف جليا أننا لا نحتاج لكى نكون موجودين إلى أى شىء آخر يمكن أن يعزى إلى الجسم، وإنما وجودنا بفكرنا وحده. وإذن ففكرتنا عن نفسنا أو عن فكرنا سابقة على فكرتنا عن الجسم، وهذه الفكرة أكثر يقينا. بالنظر إلى أننا لا نزال نشك فى وجود أى جسم، فى حين أننا نعرف على وجه اليقين أننا نفكر". (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٧).

(١٨) هكذا أينعت ثمرة الشك لدى بوليندر ليصل بنفسه إلى ما كان ديكارت قد توصل إليه من قبل فى "التأملات" حينما قرر : "لا أسلم الآن بشىء ما لم يكن بالضرورة صحيحًا : وإذن فما أنا على التدقيق إلا شىء مفكر، أى ذهن أو روح أو فكر أو عقل، وهى ألفاظ كنت أجهل معناها من قبل : فأنا إذن شىء واقعى وموجود حقا، ولكن أى شىء - لقد قلت إنى شىء مفكر . " (ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ١٠٠).

(١٩) يقصد هنا ديكارت المستحيل الهندسى.

(٢٠) قارن ما يقوله بوليندر هنا، بما كتبه ديكارت فى " المبادىء " : " (...) حين أقول : أنا أرى وأمشى، وإذن فأنا موجود، وحين أقصد من الكلام عن الرؤية أو المشى عمل عينى أو ساقى، لا يكون استنتاجى استنتاجا يقينيا ينتفى معه كل شك : فقد أظن أنى أرى أو أمشى من دون أن أفتح عينى أو أبرح مكانى، كما يحدث لى أحيانا وأنا نائم، بل ربما يقع لى هذا الظن نفسه لو لم يكن لى جسم على الإطلاق، ولكن حين أريد أن

أتحدث فقط عن عمل فكرى أو وجدانى، أى عن المعرفة التى أجدها فى نفسى والتى تُخيل لى أنى أرى أو أمشى، تكون هذه النتيجة صحيحة لا أستطيع أن أشك فيها، لأنها ترجع إلى النفس، التى لها وحدها ملكة الوعى أو التفكير على أى نحو آخر " (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٧). وهو ما أكده أيضا فى "التأملات" : " لا أسلم الآن بشىء ما لم يكن بالضرورة صحيحًا : وإذن فما أنا على التدقيق إلا شىء مفكر، أى ذهن أو روح أو فكر أو عقل، وهى ألفاظ كنت أجهل معناها من قبل : فأنا إذن شىء واقعى وموجود حقا، ولكن أى شىء ؟ – لقد قلت إنى شىء مفكر " (ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ١٠٠). يمكن النظر هنا أيضا إلى المقارنة مع الملاحظة المهمة التى أبداها الأستاذ محمود الخضيرى حول هذه الفكرة التى وجد أن ابن سينا قد أوردها قبل ديكارت فى كتاب الشفاء، وهو ما يعرف ببرهان " الرجل المعلق فى الهواء " (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ١٢١ – ١٢٢ (الهامش)).

(٢١) هنا نجد إيبوكس يعدل ما كان قد أشار إليه من قبل عن النتائج التى تُستخلص من المقدمات المنطقية، ليعود إلى ما هو معروف، ودافع عنه ديكارت دوما من أن الكوجيتو ليس استدلالا منطقيا، فما نتوصل إليه من نتائج يتم دون أن نستخدم المنطق أو نقوم بصياغة الحجج، ولكن نتوصل إليها بالحدس الذى تدفع إليه أنوار العقل فى تماسك مع الحس السليم.

(٢٢) يصل ديكارت فى نهاية التأمل الثانى إلى النتيجة نفسها : ".. ما دام قد تبين لى الآن أن الأجسام ذاتها لا تُعرف على الحقيقة بالحواس أو بالقوة الواهمة (المخيلة) بل بالذهن وحده، وأنها لا تُعرف لكونها تُرى وتُلمس بل لكونها تُفهم أو تُدرك بالفكر فإنى أرى بوضوح أنه ما من شىء هو عندى أيسر وأوضح معرفة من نفسى " (ديكارت، التأملات، مصدر سبق ذكره، صـ ١١٠ – ١١١)، وهو نفس ما توقف عنده فى "المبادىء" : " .. حين نفحص عن ماهيتنا نحن الذين نفكر الآن فى أنه ليس خارج فكرنا شىء هو موجود حقا، نعرف جليا أننا لا نحتاج لكى نكون موجودين إلى شىء آخر يمكن أن يعزى إلى الجسم، وإنما وجودنا بفكرنا وحده. وإذن ففكرتنا عن نفسنا أو عن فكرنا سابقة على فكرتنا عن الجسم، وهذه الفكرة أكثر يقينا بالنظر إلى أننا لا نزال نشك فى وجود أى جسم، فى حين أننا نعرف على وجه اليقين أننا نفكر" (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٦ – ٥٧).

(٢٣) المقصود بالسلطة هنا، سلطة أفكار وأحكام الأساتذة والمعلمين الذين ينتمون إلى المدارس (الإسكولائيون).

(٢٤) على عكس ما كان يتم فى مؤلفات ديكارت الأخرى عندما كان يكتب أنا موجود على النحو التالى : Je suis (أكون)، نجده هنا فى نص المحاورة يكتبها J' existe (موجود).

(٢٥) قارن هذا بالمبدأ العاشر من مبادىء ديكارت الذى يرى فيه : " .. أن من المعانى ما تكون واضحة كل الوضوح بذاتها، وتصير غامضة متى أريد تعريفها على طريقة المدرسيين وأنها لا تُكتسب بالدرس بل تولد معنا (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٨).

(٢٦) يؤكد ديكارت هذا فى "المبادىء" قائلاً : " .. لاحظت أن الفلاسفة أرادوا أن يفسروا وفقا لقواعد منطقهم، أشياء هى فى ذاتها جلية واضحة، فلم يستطيعوا إلا أن يجعلوها أشد غموضا. وأنا حين قلت إن هذه القضية : (أنا أفكر، إذن فأنا موجود) هى أول وأوثق قضية تعرض لمن يتفلسف على نهج مرتب، لم أنكر أنه يلزمنا أن نعرف أولا ما هو الفكر وما هو اليقين وما هو الوجود، وأنه لكى نفكر يجب أن نكون موجودين وما شبه ذلك". (ديكارت، مبادىء الفلسفة، مصدر سبق ذكره، صـ ٥٨).

(٢٧) قارن قول بوليندر هذا بما قاله ديكارت فى خطاب له إلى الأب مرسن سنة ١٦٣٩ "لا نستطيع أن نعطى أى تعريف لمنطق الحقيقة الذى يساعد على معرفة طبيعتها. وأعتقد الشىء نفسه فى عديد من أشياء أخرى، شديدة البساطة وتعرف بشكل طبيعى، مثل الشكل، والحجم، والمكان والزمان .. إلخ.، بحيث عندما نرغب فى تعريف هذه الأشياء، نقوم بتعتيمها، والحيرة إزاءها".

Lettre à Mersenne, 16 octobre 1639, in Pierre Guenancia, Descartes, coll. Philosophie présente, éd. Bordas, Paris, p.112 (الهامش).

(٢٨) قارن هذا بما يقوله ديكارت فى "مقال المنهج" من أن : "ليس غرضى أن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد اتباعه لكى يحكم قيادة عقله، ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أقود عقلى" (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ٧٣).

(٢٩) لعل هذا اليقين المؤكد ينبع من اختبار ديكارت لمنهجه حتى وصل إلى اليقين والرضا عنه، وهو ما عبر عنه فى "مقال المنهج" : ".. على أن التقدم الذى أظننى تقدمته فى البحث عن الحقيقة، قد بلغ بى غاية الرضا ومهد لى فى المستقبل أمالا تجعلنى أرى أنه إذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس ما هو خير وذو خطر، فلى أن أجرؤ على القول بانه هو العمل الذى تخيرته". (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ٧٢). وفى موضع آخر يجد أن أكثر ما أرضاه من ذلك المنهج "هو ثقتى أننى بواسطته أستعمل العقل فى كل أمر، إن لم يكن على الوجه الأكمل فعلى خير ما فى استطاعتى على الأقل، ذلك فوق أننى كنت أشعر فى تطبيق ذلك المنهج أن عقلى كان يتعود شيئًا فشيئًا على تصور ما يتصوره على وجه أشد وضوحًا وأقوى تميزًا، وأننى إذ لم أقصر هذا المنهج على مادة معينة، فقد كان لى الأمل ان أطبقه تطبيقًا مفيدًا أيضا على معضلات العلوم الأخرى.." (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ١٠٢).

(٣٠) راجع قواعد المنهج الديكارتى، حيث تقول القاعدة الأولى التى تنطبق على هذه الفقرة من المحاورة : "ألا أقبل شيئا على أنه حق، ما لم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور (التسرع)، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل فى أحكامى إلا ما يتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك". (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٧).

(٣١) قارن هذا بما يعترف به ديكارت فى "مقال المنهج" : ".. وجدت نفسى يحيرنى من الشكوك والضلالات، ما بدا لى معه أننى لم أكتسب من اجتهادى فى التعليم، إلا تبينى شيئًا فشيئًا جهالتى". (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، ٧٣ - ٧٤).

(٣٢) قارن ذلك بالقاعدة الثالثة من قواعد المنهج عندما يقول ديكارت : "أن أسير أفكارى بنظام، بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كى أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيبًا، بل وأن أفرض ترتيبًا بين الأمور التى لا يسبق بعضها الآخر بالطبع". (ديكارت، عن المنهج العلمى، مصدر سبق ذكره، صـ ٩٨).

(٣٣) قارن هذه الفقرة مرة أخرى بالقاعدة الأولى من قواعد المنهج.

يوميات تاريخية فى حياة ديكارت:

١٥٩٦ : ولد رينيــه ديكارت فى ٣١ مــارس ببلدة لاهى La Haya بمقـاطعـة تورين Touraine (وقـد حـملت البلدة اسم : لاهى - ديكارت بداية من سـنة ١٨٠٢) وهو يرتبط بمدينة بواتو Poitou التى عاش فيها أجداده من ناحيـة الأب والأم، وامتلكت فيـهـا أسـرته ثروة عقـارية ورث البعض منها، إلا أنه فضل فيما بعد أن يبيع ما ورثه، ويوكل لرجال بنوك هولنديين استـثمـار حصـته، وهو مـا جعله يعيش حياة رغدة فى ظل احتياجاته المعتدلة. والده جواكيم ديكارت كان يعمل مستشاراً ببرلمان مقاطعة البُرطانىّ، وقد توفى فى سـنة ١٦٤٠، وكانت والدته جان بروشار قد توفيت عقب ميلاده بعام تقريبًا، فى ١٣ مايو ١٥٩٧ .

١٥٩٧ - ١٦٠٦ : تربى رينيه الصبى فى لاهى فى كنف جدته لأمه، وبمساعدة مرضعة لم ينسها أبدًا؛ حيث كان يرسل لها معاشًا دائمًا فى حياته، وحتى بعد مماته أوصى ورثته بها، وكان والده قد تزوج بداية من سـنة ١٦٠٠ مرتين، أسفرت زيجتاه عن أخين وأختين لديكارت.

١٦٠٦ - ١٦١٤ : بدأ دراسـتـه بكوليج الجـزويت دى لافليش، التى كانت قد أسست سـنة ١٦٠٤ على يد هنرى الرابع. فى هذا الوقت كانت صحة ديكارت هشة، ويبدو أن رئتيه كانتا ضعيفتين، لذا بفضل الأب شارليه مدير الكوليج، وكان من أقرباء ديكارت - تمتع الصبى بنظام شديد

المرونة أعفاه من النظام الصارم المطبق على أقرانه؛ إذ أكمل مراحله الدراسية بحرية وحسبما أراد، فكان يستيقظ متأخـرًا، وهى العادة التى تمسك بها طيلة حياته، وبسبب فقدها دفع حياته ثمنا عندما انتقل إلى بلاط ملكة السويد فى أواخر أيامه، وفرض عليه الاستيقاظ فى الخامسة صباحا ليلقى على الملكة دروسًا فى الفلسفة. إعفاء ديكارت من النظام الصارم فى الكوليج جعله يحتفظ طيلة حياته بالتقدير والتبجيل تجاه أساتذته وتعليمهم القوى والمتميز، وكانت انتقاداته تنصب – بشكل عام – على طبيعة وإعداد الدراسة فى عصره.

١٦١٤ – ١٦١٦ : يتم ديكارت دراسة القانون فى جامعة بواتييه ويحصل على الليسانس فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ ويشتهر بسبب دراسته القانونية، لكن البعض يرى أنه درس أيضًا الطب فى هذه المرحلة.

١٦١٧ : يمضى ديكارت الشاب وقتـه بشكل حر بعـد تخرجه، فى حياة اجتماعية ورياضية كشباب عصره، فى المبارزة والسلاح والسباحة والنزهات ... إلخ.

١٦١٨ : يلتحق بالجيش البروتستانتى لأمير أورانج ببريدا بهولندا، ويتعلم العسكرية وفنونها فى مدرسة الكابتن الشهير موريس ناسو، وهو ما كان ليحدث لولا شراء والده له هذه الحظوة، وهو ما كان معمولاً به لأبناء الطبقات العليا. ولم تشغل ديكارت حياة المعسكر الخشنة تلك عن أن يقيم علاقة صداقة بإسحاق بيكمان الذى كان يكبره بثمانى سنوات،

وكان عالمًا ومثقفًا ووكيلاً لمدرسة، ودارت بينهما نقاشات عديدة حول الرياضيات والموسيقى، وربما أيضا حول الباطنية. فى هذا الأوان كان عقل ديكارت مخدرا بالمنوعات التى حصلها، وبحياة المعسكر، إلا أنه أبدى حيوية مع صحوة استيقاظ رائعة بفضل النقاشات. حاول بعد سنوات عديدة بيكمان أن ينسب لنفسه فضل عبقرية ديكارت؛ مما أثر على علاقتهما بالسلب، بعدها تمت المصالحة بينهما، وبيكمان نفسه هو الذى قدم لديكارت فيما بعد سنة ١٦٣٤ كتاب جاليليو الذى أدانته محاكم التفتيش فى العام السابق.

١٦١٩ : يترك ديكارت هولندا فى نهاية إبريل متجهًا إلى الدنمارك وربما بولندة والمجر، ثم فرنكفورت. ووجد نفسه هناك (وفى تاريخ لم يحدده) أثناء احتفالات تتويج الإمبراطور فرديناند الثانى، والمعروف أن فرديناند الثانى كان قد توج قيصرًا فى ٩ سبتمبر ١٦١٩، وفى هذا الأوان انضم إلى قوات دوق بافاريا الكاثوليكية لمدة قصيرة، وذهب لتمضية الشتاء وحيدًا فى منطقة أولم، لكنه كان – مع ذلك – على اتصال دائم مع العلماء.

وفى ليلتى العاشر والحادى عشر من نوفمبر رأى أحلامه الثلاثة التى فسرها على أنها بشرى إلهية واضحة، وهو ما وصفه كاتب سيرته باييه **Baillet** ، إذ اكتشف فى حماسته هذه ما أطلق عليه أسس علم عجيب، وهو ما حدد فى نفسه قرارات ألزمت مستقبله كله، وعلى أثر ذلك نذر أن يحج إلى نوتردام دو لوريت.

١٦٢٠ – ١٦٢١ : وهي فترة ضبابية لا نعرف عنها شيئًا بشكل جازم، يسافر في ١١ نوفمبر سنة ١٦٢٠، وهناك ملاحظة غريبة كتبها ديكارت، يتحدث فيها عن " اكتشاف عجيب " دون تحديد ، مما يوقعنا في الحيرة إذا ما كان يتحدث عن اختراع علمي بحث له، أو شيء ما يدخل في سياق الباطنية التي اهتم بها لبعض الوقت، لكنه كان مهتمًا في هذا الأوان أيضًا بالفلسفة الصوفية. إلا أنه على مستوى الواقع يلغي التزامه العسكري، وربما يكون قد اشترك في معركة الجبل الأبيض ببراغ التي ساند فيها فردريك الخامس ملك بوهيميا البروتستانت، وهو ما كلفه خسارة عرشه، وربما يكون ديكارت على العكس قد ترك الجيش الكاثوليكي قبل هذه الحملة لكي لا يشترك فيها. ومع ذلك فإن فريدريك الخامس هو والد الأميرة إليزابيث التي أصبحت صديقة عزيزة لديكارت بداية من سنة ١٦٤٣ .

١٦٢٢ – ١٦٢٣ : يعود للإقامة في فرنسا، ويبيع بعض ممتلكاته؛ ليضمن هدوءه واستقلاله المادي. وتقول المصادر في هذا إنه أمضى حياته بأكملها في رغد من العيش، ومن دون أن نعرف شيئًا كثيرًا عن موارده، غير أنه حوَّل سيولته في بنوك هولندية؛ وهو ما سهل له الإقامة في الأماكن التي سكنها. وفي سنة ١٦٤٧ سُجل في باريس على معاش ملكي قيمته ثلاثة آلاف من الجنيهات، وهو ما لم يصرف منه شيئًا، بل لم يلمسه حتى وفاته، والمعروف عنه أيضًا أنه لم يقبل أبدًا أي شيء من أي شخص، حتى وهو في الجيش، سواء أكان معاشًا أو مرتبًا.

١٦٢٤ : يسافر إلى إيطاليا، ويعتقد البعض أنه ذهب ليوفى بنذره سنة ١٦١٩ عقب رؤيته لأحلامه الثلاثة، وقراره أن يحج إلى نوتردام دو لوريت. وهو اعتقاد ربما يكون مغالى فيه، وديكارت نفسه عاد من رحلته هذه إلى إيطاليا محتفظًا بذكريات سيئة عن المناخ وعن انعدام الأمن فيها.

١٦٢٥ – ١٦٢٨ : يعود من إيطاليا للإقامة فى فرنسا، وبخاصة فى باريس ليلتقى فيها بالكتاب، والعلماء، ورجال الدين. فى خريف سنة ١٦٢٧ يشارك فى محاضرات معمقة مع الكاردينال دى بيريل **de Berulle** الذى يحمله بواجب تطوير فلسفته الجديدة من أجل خير الدين والبشر. ويشرع فى كتابة " قواعد لهداية العقل " باللاتينية، وهو النص الذى لم يستكمله، ولم ينشر إلا بعد نصف قرن من وفاته فى سنة ١٧٠١ مع نص المحاورة " البحث عن الحقيقة .. ". هذا وقد شرع أيضًا فى كتابة رسالة عن الميتافيزيقا، وهى ما لا نعرف عنه شيئًا حتى الآن؛ إذ لم يُعثر عليها. ويرحل ديكارت فى خريف سنة ١٦٢٨ إلى هولندا التى لم يغادرها حتى سنة ١٦٤٩ إلا ثلاث مرات وبشكل قصير، وهناك لم يتوقف عن تغيير محل إقامته، فالمعروف أنه لم يكن يظل فى مسكن واحد مدة طويلة حتى لا يزوره كثير من الناس والمعارف، فتغيير محل إقامته يتيح له معارف أقل فى المكان الجديد، وبالتالى مزيدًا من الهدوء والسكينة والراحة التى نشدها طيلة حياته.

١٦٣٠ : الخلاف مع بيكمان – كما أسلفنا – الذى ادعى أستاذيته لديكارت، وبأنه كان معلمه الأول، ولهذا نسب إلى نفسه الفضل فى بروز عبقرية فيلسوفنا، ولم يستمر الخلاف سوى عام، وتم صلح فاتر بينهما بلا شك.

١٦٣١ – ١٦٣٢ : فترة ضبابية غير معروف عنها شيء يذكر.

١٦٣٣ : إدانة محاكم التفتيش لجاليليو فى روما فى ٢٢ يونيو. ديكارت يعرف بالخبر فى شهر نوفمبر، أى بعد أكثر من أربعة أشهر، وذلك لنقص وسائل الاتصال السريع فى هذا الأوان، ويقرر فيلسوفنا صرف النظر عن طبع رسالته عن " العالم " والتى كتبها بالفرنسية وعمل عليها خلال سنوات عديدة، وكان بصدد وضع اللمسات الأخيرة عليها – وكما ذكرنا سلفًا أن إسحق بيكمان هو الذى أمده بكتاب جاليليو الذى حوكم من أجله، ولم تظهر الرسالة إلا مع رسالته عن " الإنسان " فى سنة ١٦٦٤؛ أى بعد أربعة عشر عامًا من وفاته.

١٦٣٥ : ميلاد ابنته فرنسين من خادمته الهولندية، وعُمِّدت طفلته فى كنيسة بروتستانتية؛ تبعًا لعقيدة والدتها، وهى حادثة تؤكد موقف ديكارت الحقيقى من الدين، الذى لم يلعب فى حياته الشخصية دورًا كبيرًا، مهما ادعى هو نفسه عكس ذلك، وعلى الرغم مما كتبه عن تمسكه بكاثوليكيته. ولعل نص المحاورة "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى" قد أكد ذلك من قبل.

١٦٣٧ : نشر ديكارت فى مدينة ليد خلال شهر يونيو كتابه "مقال المنهج" بالفرنسية، ودون أن يذكر اسم الكاتب (ربما لأن محاكمة جاليليو ما زالت ماثلة أمامه)، وأتبع كتابه هذا بثلاث محاولات هى على التوالى : "انكسار الضوء ، والنيازك، وعلم الهندسة"، ولم يلفت نظر العلماء فى هذا الكتاب سوى هذه المحاولات الثلاث التى أثارت ردود أفعال حية، خاصة من قبل روبير فال **Roberval** وفيرما **Fermat** ، وقد التحق بهما والد بسكال. كان العقد الذى وقعه ديكارت مع ناشر هذا الكتاب، يقضى بأن يتنازل ديكارت عن كل حقوق النشر مجانًا؛ فى مقابل أن يحصل على مائتى نسخة من الكتاب فقط.

١٦٣٧ – ١٦٤٠ : سنوات سعيدة وآمنة قضاها ديكارت بالقرب من ابنته فرنسين ووالدتها.

١٦٤٠ : يتأهب ديكارت لأن يرسل بابنته فرنسين إلى باريس ليعهد بها إلى إحدى قريباته، وكانت راهبة مسئولة عن دير سانت شابيل. إلا أن الطفلة تموت على أثر حمى حادة فى شهر سبتمبر، وكما يصف باييه مؤرخ ديكارت بأن فيلسوفنا قد تأثر جدًا من أنها قد تركت له بموتها أكبر الأسف الذى سيظل يشعر به طيلة حياته. وفى الشهر التالى (أكتوبر) يفقد ديكارت والده جواكيم، وزاد ذلك من حزنه كثيرًا، خاصة وأنه لم يكن يومًا على اتفاق أبدًا مع والده ..

١٦٤١ – ١٦٤٢ : فى نهاية صيف سنة ١٦٤١ ينشر فى باريس للمرة الأولى "التأملات" باللاتينية، والمعروف أن بقية العنوان وهو العنوان النهائى لم يظهر إلا فى طبعة أمستردام فى ربيع سنة ١٦٤٢ . هذا وقد احتوت الطبعة الأولى على ست حلقات من الاعتراضات وإجابات ديكارت عنها، فى الوقت الذى كان الكتاب يتم تداوله مخطوطًا، ولم تظهر الحلقة السابعة من الاعتراضات إلا فى طبعة سنة ١٦٤٢، والتى جاء فيها أنها قد طُبعت فى ٢٨ أغسطس. أما الترجمة الفرنسية وقد قام بها الدوق لينس **Luynes** للتأملات، وكلرسيليه **Clerselier** للاعتراضات والإجابات، فلم تظهر سوى سنة ١٦٤٧ بباريس، وهى الطبعة التى راجعها ديكارت نفسه؛ وهو ما أعطاه الفرصة للتدقيق فى بعض النقاط فى فكره، مما جعل باييه يفضل هذه الطبعة الفرنسية عن الأصل اللاتينى. وفى ديسمبر سنة ١٦٤١ ثار نقاش حاد بجامعة إيريشت **Urecht** حيث كان يقوم بالتدريس بها البروفيسير فويت **Voët** وهو المعارض الرئيس فيها لديكارت منذ عدة سنوات، إلى أن وصل الأمر إلى أن يتهم ديكارت بالإلحاد. وفى ١٧ مارس سنة ١٦٤٢ تصدر الجامعة إدانة للفلسفة الجديدة دون أن تسمى الفيلسوف، وتستمر المعركة بإدانة أخرى جديدة فى مايو سنة ١٦٤٣؛ مما جعل الأمر يبدو خطيرًا، وتهدأ الأوضاع بعد تدخل أصدقاء ديكارت وسفير ملك فرنسا لبعض الوقت، إلا أنه سرعان ما تتجدد الاتهامات فى سنة ١٦٤٥، حيث أنهت الجامعة هذا الموضوع فى ١٢ يونيو بمطالبة الجميع بعدم نشر أى شىء، سواء ضد ديكارت والفلسفة الجديدة أو فى صالحهما.

١٦٤٣ : فى مايو بداية علاقة ديكارت والأميرة إليزابيث Elisabeth ابنة فردريك الخامس ملك بوهيميا المخلوع، وهى مولودة فى سنة ١٦١٨، ولجأت إلى لاهاى بهولندا مُذ سنة ١٦٢٧، هذا وقد بدأ معها مراسلات مُذ ذلك التاريخ وحتى أسابيع قليلة قبل وفاته. وبالتحديد فى هذه المراسلات وفى السنوات التى امتدت خلالها، يكشف ديكارت عن أخلاقه التى توصف " بالنهائية "، وهى التى أعقبت " الأخلاق المؤقتة " التى جاء بها فى " مقال المنهج ".

١٦٤٤ : من مايو وحتى نوفمبر يسافر إلى فرنسا. وفى يوليو أثناء غيابه عن أمستردام يُنشر له فيها كتابه " مبادئ الفلسفة " باللاتينية، وهو الكتاب الذى أهداه إلى الأميرة إليزابيث، وخرج من المطبعة يحمل تاريخ ١٠ يوليو. وكانت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية التى قام بها القس بيكو L'abbe Picot قد انتهت فى مايو سنة ١٦٤٥، إلا أنها تأخرت كثيرًا بسبب تأخر ديكارت نفسه فى مراجعتها، ولم تظهر إلا فى سنة ١٦٤٧ بباريس مسبوقة بنص فى غاية الأهمية لم ينشر من قبل، وكان عبارة عن خطاب من (ديكارت) إلى مترجم الكتاب، وهو ما استخدم هنا كمقدمة.

١٦٤٥ – ١٦٤٦ : وخلال الشتاء يبدأ ديكارت فى الكتابة للإجابة إلى طلب من الأميرة إليزابيث، ويتبلور ما كتبه الفيلسوف فى رسالته "فى انفعالات النفس".

١٦٤٧ : نشـر التـأمـلات بالفـرنسـيـة فى باريس دون السلسلة السابعة من الاعتراضات والإجابات - كما أسلفنا - ثم "المبادئ" مع مقدمة جديدة ومهمة. وفى هولندا خلال شهر إبريل وفى ليد **Leyde** تحديدا يُتهم ديكارت من قبل تلميذ وصديق قديم له هو هنرى لوروا **Henri le Roy** المعروف بريجيس **Regius** - بتهمة البيلاجوسية **Pelagianisme**(*) ويتدخل سفير ملك فرنسا لدى أمير أورانج لإيقاف تلك الزوبعة الجديدة حول ديكارت. وتقرر الجامعة فى أغسطس منع الكلام بتاتًا عن ديكارت بأى معنى كان. وخلال يونيو - نوفمبر يسافر ديكارت للمرة الثانية لفرنسا. ويصالح خلال المدة ذاتها هوبز **Hobbes** وجسندى **Gassendi** بعد خلافات كانت قد شبت بينه وبينهما. ويتقابل مع بسكال فى أكثر من مرة، فى مقابلات لم تكن بالنسبة لديه حارة. (ولنا هنا ملاحظة كيف أن ديكارت عقب اتهامه فى ليد سارع بالسفر إلى فرنسا، وحاول جاهدًا فى رحلته أن يسوى خلافاته السابقة، حتى لا يوسع من دائرة خلافاته، ولعله أحس خطورة وجوده فى هولندا عقب الاتهامات السابقة) وفى ديسمبر تستعر الخصومة من جديد مع ريجيس، إلا أن جامعة ليد تنهى الأمر فى سبتمبر سنة ١٦٤٨، عندما تعين أحد الديكارتيين فى كرسى الأستاذية الشاغر بها. فى سنة ١٦٤٧ أيضًا تبدأ مراسلات ديكارت بالملكة كريستين ملكة السويد.

(*) وهى نظرية تخص رجل الدين بيلاجيوس (٣٦٠ - ٤٢٠) الذى قال بالحرية التامة لإرادة الإنسان بعد أن أنكر الخطيئة الأولى.

١٦٤٨ : قابل ديكارت فى إبريل بيرمان **Burman** . ومن مايو حتى أغسطس أتم سفره الثالث والأخير لفرنسا، خاصة فى بداية اضطرابات الفروند **Fronde**(*) ولم يكن ديكارت ليحتمل فوضى الاضطرابات لا فى الدولة ولا فى العقل، ولعل اختياره للإقامة فى هولندا كان من أجل السلام والهدوء المدنيين اللذين لاقاهما هناك، إضافة أيضًا إلى أن المناخ الهولندى قد لاءم طبعه. كان يحمل فى جعبته مشروعًا قبل حضوره إلى فرنسا يتمثل فى إقامة مدرسة للفنون والمهن، فقد كان يود التقريب بل العمل على تعاون العلماء وأصحاب المهن، أى بين العلم والتكنولوجيا، والبحث وتطبيقاته على الأرض، لكن الفوضى التى لاقاها وأدت مشروعه فعاد أدراجه. وفى سبتمبر يموت الأب مرسن **pere Mersenne** صديق ديكارت الذى كان قد تعرف إليه فى كوليج دى لافليش، وظل مرتبطًا به بصداقة حميمة، خاصة أثناء إقامة ديكارت الباريسية الأولى فى شبابه، حتى وبعد رحيل ديكارت لهولندا تظل مراسلات ديكارت له تكشف عن عمق صداقتهما، لما تحمله من محتوى، وما تشكله من كم كبير، ولا ننسى أن مرسن ظل يستقبل كل مراسلات ديكارت التى تأتى له فى باريس، بتكليف من ديكارت نفسه. فى هذه الأوان يعد ديكارت رسالته عن "الإنسان".

(*) وهما انتفاضتان قامتا فى بداية عهد الملك لويس الرابع عشر (٥ سنوات) عندما ثار البرلمان فى البداية ضد السلطة المطلقة للوزير مزارينى (الوصى على العرش)، ثم انضم النبلاء بعد ذلك إلى الانتفاضة فانسحب منها أعضاء البرلمان؛ فسميت انتفاضة النبلاء. هذا وقد فشلت الانتفاضتان عقب عودة مزارينى بقواته من ألمانيا، فى حوالى سنة ١٦٥٢ .

١٦٤٩ : بداية من فبراير وملكة السويد كريستين تحاول إغراء ديكارت للمجيء للاستقرار فى استوكهولم (السويد)، عن طريق المراسلات والدعوات، وحتى الضغوط؛ إذ كانت سياستها هى جذب الكتاب والعلماء إلى بلاطها. ويتردد ديكارت طويلاً جداً فى قبول هذه الدعوة؛ فقد كان يخشى على حريته من الاغتراب، فى الوقت ذاته الذى كان يود فيه أن يجدد من حياته. ولعل إخفاق مشروعه فى خضم فوضى اضطرابات فرنسا التى عاينها بنفسه من جهة، ومن جهة أخرى تصاعد الاتهامات التى أخذت تحيط به فى هولندا حيث يقيم، كانت لها الكلمة الفصل فى قراره أخيراً بقبول الدعوة والرحيل إلى استوكهولم فى سبتمبر. وفى نوفمبر وفى غيابه، تُنشر "انفعالات النفس" أو "رسالة فى الانفعالات" بالفرنسية فى باريس.

١٦٥٠ : مُذ وصوله إلى استوكهولم ظل ديكارت يعانى على كل المستويات؛ إذ فقد الهدوء والراحة، وهو ما سعى إليه دائماً حتى الآن؛ وذلك فى خضم حياة البلاط الملكى الصاخب بالحركة والأنشطة التى لا تنقطع لملكة شابة فى الثالثة والعشرين من عمرها، تحب جلسات الكتاب والعلماء، وقد جمعت فى بلاطها عدداً كبيراً منهم. وها هو العالم والفيلسوف ديكارت يطلب منه تأليف كوميديا مسرحية ورمزية، وهو عمل أنجزه ولم يعثر عليه، وبمناسبة عيد الملكة، والاحتفال بسلام وست فالى، يكتب كتيباً لباليه شعراً، تحت عنوان "ميلاد السلام"، الذى نُشر أخيراً فى سنة ١٩٢٠ بعد أن تصور الجميع أنه قد فُقد للأبد مثل الكوميديا المسرحية،

وهى أنشطة لم يكن يتوقعها ديكارت، ولا يُعتقد أنه قد قام بها عن طيب خاطر، وذلك على عكس مشروع عمل لوائح لإنشاء أكاديمية سويدية. وفى الوقت ذاته أيضًا رجحنا أن يكون قد بدأ فى كتابة محاورته "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى"، وتصورنا أنه كتبها ليترك شيئًا للملكة التى كان يحترمها ويبجلها، وكان قد عقد العزم على الرحيل، شيئًا يمكن أن تستفيد منه خاصة عندما نرى خطة هذا المشروع فى بداية المحاورة. وكان ديكارت قد بدأ بداية من يناير سنة ١٦٥٠ فى إعطاء دروس فى الفلسفة للملكة، واضطر أن يحضر لقصرها بانتظام فى الخامسة صباحًا حسب مواعيدها، وهو الذى تعود أن يستيقظ متأخرًا منذ نعومة أظافره وحتى قبل وصوله لاستوكهولم، ولم يتحمل هذا العبء الهائل، خاصة فى ظل شتاء إسكندينافى جليدى قارس، فأصيب بالتهاب رئوى ألزمه فراشه فى الثانى من فبراير، ورفض نصائح الأطباء ، فلم يكن يثق فى أحد وتصور أنها وعكة بسيطة، واستمر فى عناده إلى أن اكتشف فى اليومين الأخيرين خطورة حالته، ولم يدفع عنه هذا أن يقضى نحبه فى الحادى عشر من فبراير. وجُمعت أوراقه وأُرسلت إلى كلرسيليه الذى أعد مراسلاته للنشر فى ثلاثة مجلدات فى سنة ١٦٥٧، وسنة ١٦٥٩، وسنة ١٦٦٧ ، وكانت أولى مراسلات ديكارت غير المكتملة.

١٦٦٢ – ١٦٧٧ : نشر فى طبعات غير دقيقة بعض الفصول من كتاب "العالم" (الإنسان ورسالة الضوء).

١٦٩١ : نشر كتاب حياة السيد ديكارت فى مجلدين للأب أدريان بابيه **Adrien Baillet** ، وهو أهم مؤرخ لسيرة ديكارت الذاتية، وقد نشر ملخص لهذا الكتاب فى مجلد واحد، وذلك سنة ١٦٩٣ .

١٧٠١ : ظهور الطبعة الأولى باللاتينية لكتاب "قواعد لهداية العقل"، وظهور محاورة "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى" للمرة الأولى.

١٨٩٧ – ١٩١٣ : ظهور الأعمال الكاملة فى ١٢ مجلداً، وذلك للاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لميلاد ديكارت، وقد أثرت هذه الطبعة على الفكر المعاصر تأثيراً كبيراً.

١٩٣٩ – ١٩٦٣ : نشر مراسلات ديكارت فى ثمانية مجلدات.

اعتمدت هذه اليوميات بشكل أساسى على المصدرين التاليين :

Descartes, Discours de la Méthode, pour bien conduire la raison, & chercher la Vérité dans la Science, livre de Poche, introduction d'Alain et de Paul Valery, Edition Etablie, Présentée et annotée par Samuel S.de Sacy, Paris, 1970.

Samuel S.de Sacy, Descartes par lui - même, Ecrivains de Toujours, Edition Seuil, Paris, sans date.



المؤلف فى سطور

رينيه ديكارت (١٥٩٦–١٦٥٠) René Descartes

فيلسوف فرنسى شهير، يلقب بأبى الفلسفة الحديثة، هيمن على سماء الفلسفة طيلة القرن السابع عشر. تنسب عائلته لصغار النبلاء. التحق فى العاشرة من عمره بكوليج الجزويت الشهيرة دى لافليش. بعد أن يحصل على ليسانس الحقوق يبدأ حياته العسكرية، ويسافر ويتعرف على كبار العلماء والفلاسفة فى عصره. توخى دائمًا الحذر ليتفادى محاكم التفتيش. يستقر فى هولندا منذ عام ١٦٢٨، ويتفرغ هناك للتأليف العلمى فى الهندسة التحليلية والمناظير قبل أن يبحث فى تأسيس منهجه، يلبى دعوة الملكة كريست

ين ملكة السويد عام ١٦٤٩، ويموت فى ستوكهولم عام ١٦٥٠ .

من أهم مؤلفاته :

- قواعد لإرشاد العقل عام ١٦٢٨ .
- مقال فى المنهج عام ١٦٣٧ .
- تأملات ميتافيزيقية عام ١٦٤١ .
- مبادئ الفلسفة عام ١٦٤٤ .

المترجم فى سطور

د/ مجدى عبد الحافظ عبد الله صالح

- أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة حلوان .
- حاصل على الدكتوراه فى العلوم الإنسانية (فلسفة معاصرة) من جامعة باريس ١٠ ، نانتير بفرنسا سنة ١٩٩١ .
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا للجامعة DESU من جامعة باريس ٨ ، سان دينى ١٩٨٧ .
- حصل على دبلوم الدراسات المتعمقة DEA فى الفلسفة المعاصرة من جامعة باريس ٤ ، السوربون ١٩٨٢ .
- حصل على دبلوم الجامعة المرحلة الثالثة فى الفلسفة المعاصرة من جامعة باريس ٤ ، السوربون ١٩٨١ .
- حصل على ليسانس الآداب فى الفلسفة من جامعة القاهرة ١٩٧٦ .
- عمل مدرسًا بجامعة باريس ٤ ، السوربون قبل أن يعمل بجامعة حلوان وهو أستاذ زائر بجامعة إميان بفرنسا .
- له العديد من المقالات والبحوث والدراسات والكتب فى مجال الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر العربى والتاريخ .

التصحيح اللغوى : دعــاء غـريب
الإشراف الفنـى : حســن كــامل

